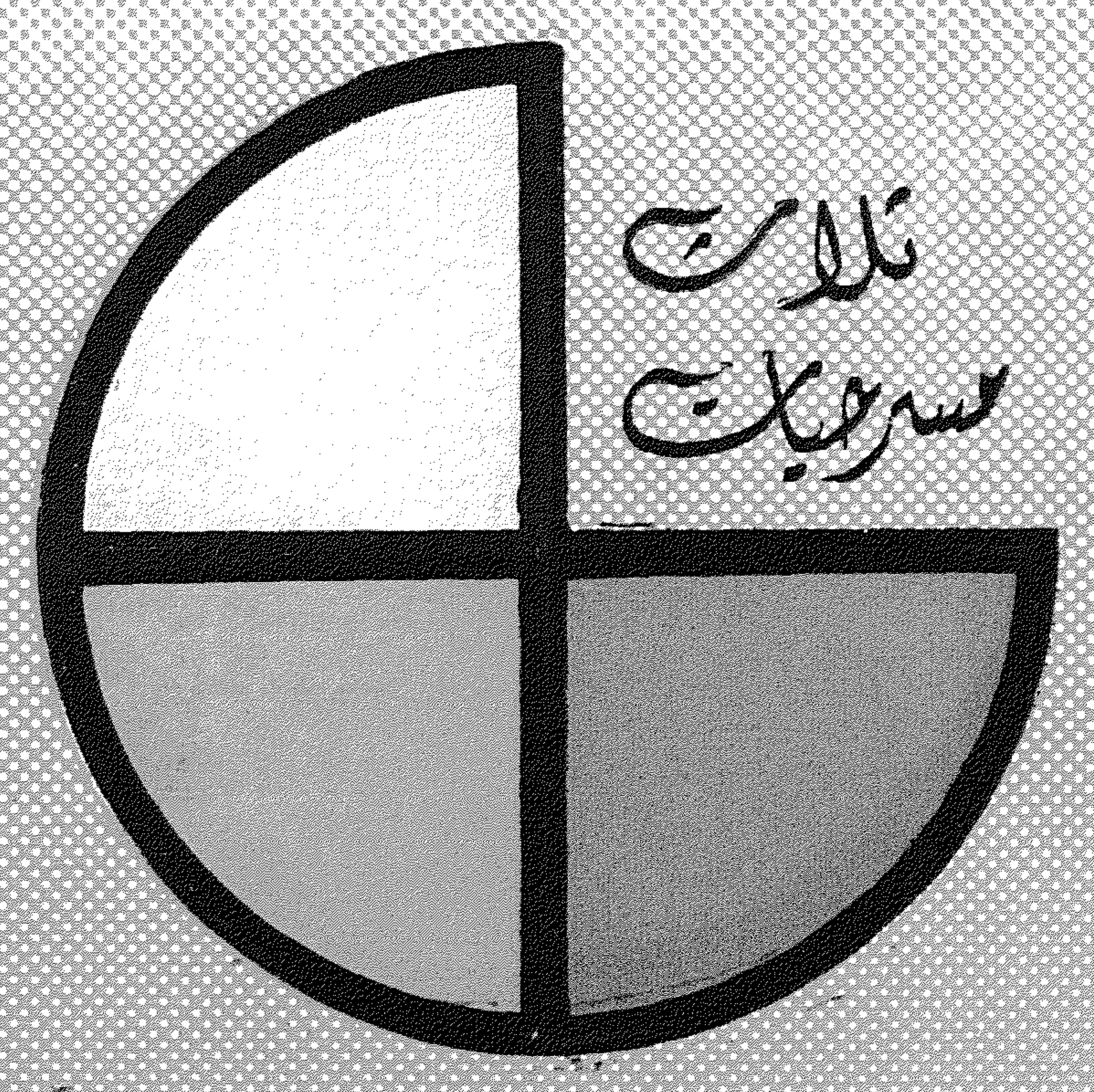
المجلس الأعلى للثقافة

يوهان فولفجانج فون جوته



ثلاث مسرحيات

شتيلا . أخ وأخت . بروميثيوس

ترجمة وتقديم

دكتور مصطفى ماهر

المجلس الأعلى للثقافة

يوهان فولفجانج فون جوته

ثلاث مسرحيات

شتيلا . أم وأخت . بروميتيوس

ترجمة وتقديم
دكتور مصطفى ماهر

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بدأ الاهتمام بنقل أعمال جوته - أديب ألمانيا الأشهر - فى عشرينيات القرن الحالى ، فنقل الزيات « آلام فرتر » عن الترجمة الفرنسية ، وجاءت ترجمته على الرغم مما بها من انحراف عن الأصل الألمانى ، عملا أدبياً ممتازاً ، تكررت طباعته مراراً منذ ذلك الحين دليلا على أن الالتزام اللغوى الدقيق بالنص الأصلى ليس إلا ركناً واحداً من أركان عملية الترجمة الأدبية المعقدة ، وأن الأسلوب الأدبى المتميز ركن آخر له وزنه . كذلك نقل الدكتور محمد عوض محمد الجزء الأول من مسرحية « فاوست » ونقل القصة الشعرية « هرمن ودوروتيا » ، وهناك ترجمات الدكتور عبد الرحمن بدوى « للديوان الشرقى للمؤلف الغربى » و « التيادلات المزدوجة » التى أسماها « الأنساب المختارة » ، وترجمات الدكتور عبد الحليم كرارة الشعرية « لفاوست » بجزئيه ولمسرحية « إيفيجينيا » ، وترجمات الدكتور عبد الغفار مكاوى لـ « توركواتو تاسو » وأجزاء من « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » و « الأقصوصة والحكاية » . ولا ينبغى أن ننسى ترجمة محمود إبراهيم الدسوقى لـ « إلا يجمونت » و « إيفيجينيا » .

وجرى على ترجمات جوته إلى العربية ما يجرى على ترجمات الأعمال الأدبية المتميزة ، فقد تكررت ترجمة العمل الواحد بأقلام مختلفة تعبر عن وجهات نظر مختلفة أيضاً . فهناك على الأقل ترجمتان للجزء الأول من فاوست (الدكتور عوض والدكتور كرارة) وترجمتان لهرمن ودوروتيا وترجمتان لإيفيجينيا (كرارة والدسوقى) ومالا يقل عن خمس ترجمات لآلام فرتر ، وترجمتان لأشعار للديوان الشرقى للمؤلف الغربى . كذلك جرى على هذه الترجمات ما يجرى على غيرها ، فأكثرها اختفى من المكتبات ولم يعد من الممكن الحصول عليه .

وليس اختفاء الترجمات من المكتبات دليلا على قلة قيمتها أو قلة تأثيرها ، إنما هي تختفي في أكثر الأحيان تبعاً للاتجاهات التي تحكم سوق الكتاب لدينا ، فقد تختفي الكتب في المخازن ، أو قد يقل انتشارها لقلة الجهد الذي يبذل للتعريف بها والترويج لها ، فإذا بطؤ انتشارها ضاق بها الناشرون ، إما أن يعاد طبع كتاب فرغت طبعته الأولى ، فشيء غير مألوف إلا بالنسبة للكتب المدرسية والجامعية ، وكتب مشاهير الكتاب والكتب الدينية ، وكتب التراث ، والكتب ذات النوعية الخفيفة الرائجة . ومن الضروري معالجة هذا الموقف والخروج بهذا التراث إلى النور ، على الأقل في إطار الطبعات المصورة المحدودة .

وإذا كان أستاذنا الدكتور طه حسين قد دعا إلى إخراج ترجمات للأعمال الكاملة لأساطين الأدب العالمي ، وجعلها في متناول القراء ، ونفذ بالفعل مشروع شيكسبير وراسين — الذي شرفت بالمشاركة فيه بمسرحية « إيفيجيني » ، فالمسئولية الثقافية تفرض علينا أن نحافظ على هذه الدعوة ، وأن نعمل على استمرارها . ومن هذا المنطلق بدأت منذ عشرين عاماً في نقل الأعمال المسرحية لجوته كاملة ، ومضى العمل بطيئاً شأن كل عمل فردي ، ولكنه حقق شيئاً من الإنجاز . وكان تصوري أن أتبع التطور الزمني ، فنشرت الأعمال التالية : —

١ — نزوة العاشق .

٢ — الشركاء .

في مجلد واحد ظهر في عام ١٩٦٦ في سلسلة « مسرحيات عالمية » .

٣ — أورفاوست .

٤ — جوتس فون برليشينجن ذو اليد الحديدية .

في مجلد واحد ظهر في عام ١٩٧٥ في مطبوعات هيئة الكتاب

٥ — كلافيجو .

فى مجلة « الثقافة الأجنبية العراقية » عام ١٩٨٥ .

وأقدم فى هـذا المجلد ثلاث مسرحيات :

— شتيللا .

— أخ وأخت .

— بروميثيوس .

وأرجو أن تتاح لى ، إن كان فى العمر بقية ، فرصة استكمال هذا المشروع الطموح حتى تكون بين يدى القارئ العربى أعمال جوته المسرحية الكاملة ، صغيرها وكبيرها ، فى ترجمات تسعى إلى البساطة فى العبارة ، والاستجلاء المتخصص للنص ، فليس هناك شك فى أن تراث جوته ركن هام من أركان الثقافة العالمية .

● ● ●

ليس من السهل تقديم صورة موجزة عن حياة جوته وأعماله ، فقد عاش عمراً مديداً نيف على الثمانين عاماً ، وامتلأ بالأحداث الكثيرة ، وتفاعل مع أحداث زمانه ومدارسه الفكرية والفنية ، وقد أنتج الكثير من الأعمال فى الشعر والمسرحية والقصة والنثر التعليمى ، شمل فروعاً كثيرة لهذه الأنواع الأدبية . ونحيل القارئ إلى الصفحات من ٩ إلى ٦٠ من الدراسة التى قدمنا بها لترجمة « نزوة العاشق » و« الشركاء » ، وإلى المجلد الأول من ترجمتنا لسيرته الذاتية « من حياتى . شعر وحقيقة » نشر المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ١٩٨٦ . ونكتفى هنا بالملامح الرئيسية .

ولد يوهان فولفجنج جوته (أو فون جوته بعد أن حصل على لقب التشريف فى عام ١٧٨٢ ، ذلك اللقب الذى يسمح لحامله بكلمة «فون» قبل اسمه) فى ٢٨ أغسطس من عام ١٧٤٩ فى مدينة فرنكفورت ، لأب مثقف حاصل على الدكتوراه فى القانون ، يحمل لقب مستشار قيصرى ، وأم شغل أبوها منصب العمدة ، وتعلم على يد أبيه ومدرسين خصوصيين ،

على ما جرت به العادة فى البيوتات الميسورة فى ذلك العصر . وشاركته التعلم وخبرات الطفولة وسنوات الصبا الأولى أخته كونيليا التى يخصها بحديث كثير فى سيرته الذاتية . وتأثر فى سنواته الأولى بثقافة أبيه الموسوعية وأفكاره ، وبموهبة أمه فى القصص ، وبمسرح العرائس الذى تلقاه الأولاد هدية من جدتهم ، وبمخالطته لعدد من أهل الفكر والفن فى فرنكفورت ، وبارتياد المسرح الذى قدم الكثير من الأعمال المسرحية الفرنسية إبان الاحتلال الفرنسى للمدينة ، وبالتوراة التى حاول قراءتها فى نصوصها الأصلية ، وبالكتب الشعبية التى كانت تباع فى الأسواق كما تباع الحلوى ، وبمطالعة أعمال الأدباء والشعراء من العصور المختلفة ، وباللغات المختلفة ، وبخاصة أعمال الإغريق القدامى ، والألمان المعاصرين . وظهرت موهبته الأدبية منذ وقت مبكر ، وكتب أعمالا منوعة ، بقى بعضها وضاع أكثرها .

فلما بدأ يدرس القانون فى جامعة لايبتسيج فى عام ١٧٦٥ خالط أوساط شعراء مدرسة الروكوكو ، واهتم بالرسم ، وبمطالعة أعمال ڤينكلمن وروسو ؛ وشهدت سنوات حياته فى لايبتسيج مغامرته العاطفية مع أنيته كيتشن فون شويكوبف . وكتب شعراً منوعاً ، يغلب عليه طابع الروكوكو ، وألف المسرحية الرعوية « نزوة العاشق » . فلما مرض فى عام ١٧٦٨ مرضاً شديداً عاد إلى فرنكفورت وأقام بها حتى عام ١٧٧٠ ، حيث تعرف إلى زوزانا فون كليتنبرج التى فتحت أمامه آفاق الصوفية والعلوم الخفية . وكتب فى هذه الفترة مسرحية « الشركاء » على النمط الفرنسى .

وانتقل فى عام ١٧٧٠ إلى مدينة شتراسبورج ، وبقى فيها حتى حصل على ليسانس الحقوق . والتقى فى شتراسبورج بالمفكر الكبير هردر الذى وجهه إلى اهتمامات جديدة ، دخلت به مدرسة « العاصفة والاندفاع » ، منها الشعر الشعبى وأعمال شيكسبير . وشهدت هذه الفترة مغامرته الغرامية مع فريدريكه بريون . وتحول جوته إلى نوع جديد عليه من الشعر هو شعر الخبرة الذاتية ، وخطط لكتابة مسرحيتى « جوتس » و « فاوست » .

وتعتبر سنوات حياة جوته من عام ١٧٧١ إلى عام ١٧٧٥ مرحلة الاشتغال المركز « بالعاصفة والاندفاع » وما اهتمت به من التعبير عن العاطفة والفطرية والطبيعة والإيمان بالعبقرية الفردية الخلاقة العنيفة. وقد أثمرت هذه المرحلة شعراً كثيراً ومقالات عن شكسبير وعن العمارة الألمانية الأصيلة مثلا ، ومحاولات مسرحية لصياغة جوتس انتهت بالصياغة التى اكتملت فى عام ١٧٧٣ ، ومنها تخطيطات لمسرحية «محمد» التى لم تتم ولم يصل إلينا منها إلا أجزاء متفرقة ، وتخطيطات لمسرحية « پروميثيوس » تناولها بالصياغة ولم يتمها ووصلت إلينا فى الصورة التى نقدمها فى هذه الترجمة . كذلك نذكر المسرحية الصغيرة « ساتيروس أو شيطان الغابة » ، ومسرحية «فاوست» التى أتم منها الصياغة الأولى التى عرفت باسم « أورفاوست » ، ومسرحية « كلاڤيجو » ومسرحية « شتِلّلا » .

وكان جوته يمارس المحاماه دون كلف حقيقى بها . ولكن عمله ساقه إلى مدينة ڤيتسلار حيث تعرف إلى شارلوته ، وكانت له مغامرات عاطفية مضطربة دخلت فى رواية « آلام الشاب ڤرتر » (١٧٧٤) التى جعلت لجوته اسماً معروفاً فى ألمانيا كلها ، وخرجت بالأدب الألمانى إلى آفاق العالمية . وينبغى أن نذكر من مسرحيات جوته فى هذه الفترة مسرحية « إجمنت » ، والعديد من النصوص المسرحية الغنائية . كذلك ينبغى أن نذكر القصائد القصصية الدرامية المسماة « بللادة » ومنها مثلا قصيدة « الصبى الخائن » و « ملك توله » .

وتعرف جوته فى عام ١٧٧٤ على الأمير كارل أوجست ، ولى عهد إمارة (ڤايمار) الذى دعاه إلى زيارته فى حاضرته . وذهب جوته إلى ڤايمار يظن أنه يقوم بزيارة قصيرة ، ولكن القدر كان قد ربط بقية حياته بهذه البقعة من ألمانيا . عينه الأمير مستشاراً له ، ثم رفعه فى عام ١٧٧٩ إلى درجة الوزير . والتقى جوته فى ڤايمار بالعديد من الشخصيات التى أثرت على حياته وأفكاره ، ولكن علاقته بالسيدة فون شتاين كانت علاقة من نوع خاص ، وهو ينسب إليها أنها جعلت منه إنساناً آخر . وكتب جوته لمسرح

المرحلة عدداً من الأعمال نذكر منها مسرحية « أخ وأخت » و « انتصار العاطفة » و « بروسبرينا » . وبدأ يكتب فى القصة الطويلة « ڤيلهلم مايستر » . كما بدأ مسرحية « إيفيجينيا » نثراً ، ومسرحية « تاسو » . ونذكر من قصائد هذه المرحلة قصيدة « حدود الإنسانية » وبللادة « ملك الإرل » .

وفى عام ١٧٨٦ ثقلت الأعباء الإدارية على جوته وأصبح يخشى على نفسه كأديب ، فترك ڤايمار ورحل إلى إيطاليا وأقام حتى عام ١٨٨٨ مشغولا بالفن وبالتراث الرومانى القديم . وأعاد صياغة « إيفيجينا » شعراً ، وأتم مسرحية « إجمونت » ، واشتغل بصياغة « فاوست » وكتب فصولا فى « ڤيلهلم مايستر » . فلما عاد إلى ڤايمار كان قد تغير تغيراً كبيراً ، وخطا خطوات بعيدة إلى الكلاسيكية ، بينما كانت البيئة الثقافية فى ڤايمار لا تزال غارقة فى بقايا العاصفة والاندفاع . وقطع جوته علاقته بالسيدة شارلوته فون شتاين ، وارتبط بامرأة رقيقة الحال دون زواج — ثم تزوجها بعد سنوات طويلة فى عام ١٨٠٦ . وعكف على دراسات علمية عن الألوان وتحورات الكائنات ، وأتم مسرحية « تاسو » وعدداً من المسرحيات الأخرى التى لم تحقق شهرة كبيرة ، و ملحمة شعرية بعنوان « هرمان ودوروتيا » . وأتم الجزء الأول من مسرحية «فاوست» . وفى عام ١٧٩٢ شارك الأمير فى معركة ضد القوات الفرنسية ، وشهد حصار (ماينتس) ، وسجل مشاهداته وانطباعاته فى « معركة فرنسا » و « حصار ماينتس » .

وإذا كان جوته وشيللر قد التقيا عدة مرات إلا أن العلاقة الوثيقة التاريخية بينهما لم تبدأ إلا فى عام ١٧٩٤ ، وكان لها أثرها المثمر على الأديبين ، فقد دب النشاط الفنى فيهما من جديد ، وأتم جوته « سنوات تعليم ڤيلهلم مايستر » ، وتناول تخطيط «فاوست» وعمل بجد فى الجزء الثانى الذى

استغرق السنوات الباقية من حياته ، وأعاد صياغة الجزء الأول من « فاوست » ونشره فى عام ١٨٠٦ ، وبدأ العمل فى « سنوات تجوال فيلهلم مايستر » وفى « التبادلات المزدوجة » ثم فى سيرته الذاتية « من حياتى شعر وحقيقة » . وفى عام ١٨١٤ قام برحلة إلى منطقة نهر الراين والتقى فى أثنائها بماريانه فون ڤيلليمر وهام بها ، وكان قد قرأ ديوان الشاعر الفارسى حافظ الشيرازى ، فاجتمعت خبرات متعددة وحفزته على إبداع « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » الذى يمثل لقاء فكريا عظيما بين ثقافة الشرق ، وبخاصة ثقافة العالم الإسلامى ، وثقافة الغرب ، وبخاصة الثقافة الألمانية .

وبدأ بيتر إيكرمن عمله كسكرتير لجوته فى عام ١٨٢٣ ولازمه منذ ذلك الحين وحتى وفاته ، ودون كتابة كل ما سمعه من جوته ، وأصدره فى كتاب كبير « أحاديث مع جوته » ، له قيمة لا يستهان بها كوثيقة سجلها رجل عايش جوته عن كثب . وكان جوته عاكفاً فى سنوات شيخوخته على كتابة آرائه النظرية ، عن المسرح والفنون والثقافة ، وعلى إنجاز أعماله الكبيرة مثل « فاوست ، الجزء الثانى » ، الذى أتمه فى عام ١٨٣١ ، « رسنوات تجوال ڤيلهلم مايستر » (١٨٢٩) والجزء الأخير من كتاب « من حياتى شعر وحقيقة » (١٨٣١) .

ومات جوته فى ٢٢ مارس من عام ١٨٣٢ .

دكتور مصطفى ماهر

حول مسرحية «شتيلا»

نشأت مسرحية « شتيللا » بعد مسرحية « كلاڤيجو » مباشرة ، لكنها لم تنته بالسرعة المذهلة التى انهت بها مسرحية « كلاڤيجو » . بدأ جوته العمل فى الفصل الأول فى مطلع عام ١٧٧٥ ، وأتمها فى أثناء العام فى فترات مختلفة ، (بين فبراير وأبريل) وطبعها فى عام ١٧٧٦ تحت عنوان « مسرحية للعشاق » . وإذا كان جوته قد عبر فى أكثر من مناسبة عن وحـدة أعماله المسرحية ، فقد حلا له أن يكون فى داخل أعماله المسرحية ، مجموعات متجانسة : مجموعة «جوتس» و «إجمونت» و «فاوست» التى تمـتاز بالبطل الكبير ، ومجموعة «كلافيجو» و «شتيللا» التى تمتاز بالطابع العاطفى وبتردد المحب أو حيرته حيال موقف وجدانى يكون هو لب المأساة .

وإذا كانت مسرحية «كلافيجو» قد ضربت بجذورها فى التراث الأدبى الفرنسى والإنجليزى ، وفى حياة جوته نفسه ، ثم عبرت بين هذا وذاك عن عصرها ، فإن مسرحية «شتيللا» لا تختلف عنها كثيراً فى هـذا الصدد . موضوع مسرحية «شتيللا» هو الرجل الذى يحب امرأتين فى وقت واحد . وقد لا يبدو لنا فى عالمنا الإسلامى الذى يعترف بتعدد الزوجات أن مثل هذا الحب مشكلة يتردى بها صاحبها إلى الهاوية حيث يرفضه المجتمع ويرفضه الدين . ولكنها تعتبر بالنسبة للثقافة الأوربية أمراً نابياً — ومن هنا نفهم أن المسرحية منعت بعد العرض الأول ، وأن جوته قد غير نهايتها فى ڤايمار بعد ذلك .

وليس لدينا من الأبحاث ما يقرر علاقة وثيقة بين « شتيللا » وأعمال أدبية أجنبية محددة ، ولكنا نعلم أن الأديب الإنجليزى المعروف « جوناتان سويفت » (١٦٦٧ — ١٧٤٥) كانت له قصة حب مزدوج انتشرت أخبارها بين الناس وكانت معروفة لجوته ومعاصريه ، قصة حب سويفت لڤانيسا وشتيللا :

وقد اتخذ جوته اسم شتيللا عن هذه القصــة . وكان موضوع حب الرجل لامرأتين قد وجد بعض الأشياع فى جماعة « العاصفة والاندفاع » التى كان من أتباعها من بحث فى عالم الحب عن أنماط أخرى غير ذلك النمط التقليدى المتكرر . وكان الناس فى ذلك العصر يعرفون مثلا أن الشاعر بورجر والأديب الفليسوف ياكوبى يأخذان فى حياتهما بهذا النمط ، فجمع كل منهما بين حبين مختلفين فى وقت واحد .

وعرف الأدب الألمانى اثنين من الأدباء المسرحيين عالجا موضوع حب الرجل لامرأتين ، أو كما يقولون فى المراجع الألمانية ، الحب المزدوج ، نعنى بهما جوتهولد إفرايم ليسينج فى مسرحية « مس سارا سامبثون » (١٧٥٥) وكريستيان فيليكس فايسة فى مسرحية « أماليا » (١٧٦٥) . فى مسرحية ليسينج مثلا رجل هو ميلفونت تعلق قلبه بابنة أحد اللوردات هى ، مس سارا سامبثون ، فاختطفها وبدأ يفكر فى الزواج بها ، ولكنه كان فى أعماق نفسه لا يزال يحب مارووود ولا يستطيع أن يتخذ قراراً بالزواج من الأولى يقطع علاقته نهائياً بالثانية التى كان له منها ابنة . وما تعلم الحبيبة الأولى مارووود بقصة الحب الجديدة حتى تتملكها الغيرة ، بل الغيرة العمياء التى تدفعها إلى دس السم لمس سارا سامبثون . ويكشف مشهد احتضارها عن الفارق الكبير بين شخصيتها وشخصية مارووود : هذه إمرأة رقيقة متسامحة عفت عن كل من أذاها حتى عن تلك التى وضعت لها السم — وتلك امرأة شديدة الغيرة لم تحتمل أن تشاركها فى حبيبها امرأة أخرى .

وما زالت الغيرة تستبد بها حتى أعمتها وأفسدت عليها كل شىء ، وجردتها من إنسانيتها .

وأوجه الإختلاف بين مسرحية « شتيللا » لجوته ومسرحية « مس سارا سامبثون » لليسينج متعددة : فهى أولا تسعى إلى التوفيق بين الحبين ، وهى ثانياً

تدور حول شخصية رجل محب هو (فرناندو) يمثل نمط « العاصفة والاندفاع » فهو الرجل الذى تؤرقه القيود فيفر منها مندفعاً إلى الحيشرية .

ويقـدم جوته فى الفصـل الثالث من المسرحية على لسان مدام زومر (وهى تسيتسيلية الحبيبة الأولى) فى حوار مع فرناندو العائد بعد غيبة طويلة والذى لم تعرف بعد أنه هو حبيبها ، تصويراً لنمط العاصفة والاندفاع هذا :

« ولاح لى اندفاع روحه مرتبطاً بإخلاص قلبه ، فانفتح له قلبى ومنحته صداقتى ، وسرعان ما منحته حبى . آه يارب السماء ! كيف كان يبدو عليه — عندما يسند رأسه مطمئنا إلى صدرى — أنه يشكرك على الموضـع الذى هيئته له بين ذراعى . . . . . ولقـد مر علينا وقت لم يكن فيـه يعرف شيئاً آخـر سوى أن يرانى سـعيدة ، وأن يجعلنى سـعيدة . . . . ثم اصطحبنى إلى طريق الآلام ليتركنى وحـيدى فى صحـراء جرداء رهيبة . . . لم أرقط أن كل شئ تحول فى نفسه شيئاً فشيئاً . . . إلى البلادة . لقد كان يحبنى دائماً ، ولكنه كان بحاجة إلى أكثر من حبى ، وكان على أن أقتسم ما كان يصبو إليه ، ربما مع خليلة اتخذها . . . وأخـيراً هجرنى . . . وتقوضت عمد قلبى . . . وتبعت الأحزان الدفينة الآلام العاتية . وهوى قلبى بعـد البكاء المرير واليأس العنيف إلى الخور والضعف ... ليس هـو المذنب الآثم . إننى آسى لكل رجل يتعلق فؤاده بإمرأة . . . إنى أتصوره كالأسير ولقد ألف الناس استخدام هـذه العبارة . إن الرجل ينحرف من عالمه إلى عالمنا ، معشر النساء ، عالمنا الذى لا يشترك مع عالمه فى شئ . ولا يزال الرجل يخدع نفسه حتى يأتى الوقت الذى تنفتح فيه عيناه ، والويل لنا عندما تنفتح عيناه . أما أنا فلم أستطع أن أقوم منه فى النهاية إلا مقام ربة البيت المستنيرة . حتى فرغ رأسى وقلبى فراغاً عجزت بسببه فى أحيان كثيرة عن لعب دور امرأة المجتمعات المتحدثة اللبقة . وكانت النتيجة الحتمية ، أنه ، وهو صاحب الفكر المتقد ، وجد صحبتى شيئاً باهتاً لا طعم له ولا لون . وهو برئ لا ذنب له » .

الرجل العاشق الذى يقع فى محنة الاختيار بين الحرية والانطلاق والحب العارم حيث لا قيود ولا حدود ، وبين الخلود إلى الدعة فى بيت هادئ به

امرأة تقوم بدور الزوجة المخلصة ولا تقـوم بدور العاشقة الولهانة ، هـذه هى الناحية الأولى من شخصية فرناندو . وفيها كثير من ملامح شخصية جوته نفسه فى ذلك العصر . يقـول جوته :

« وكنت فى سكونى حزيناً على حب ضائع ، فأصبحت نتيجة لهـذا لينا متساهلا ، أكثر تلطفاً مع الجماعة منى فى فترة سابقة براقة كنت فيها اندفع كالعاصفة لا يوقفنى شئ . لقد تمزق قلبى عندما تلقيت إجابة فريدريكة على كلمات الوداع المكتوبة التى أرسلتها إليها ... وأحسست عند ذاك ، وعند ذاك فقط ، بالمحنة التى حاقت بها ، ولم أجـد من سبيل إلى تعويض هـذه المحنة أو تخفيفها ، كانت فريدريكة دائمـاً فى مخيلتى ، حاضرة معى تماماً ، وكنت دائماً أحس برحشة إليها ، ولم أكن — وهـذا أسوأ ما فى الأمر — أستطيع أن أغفر لنفسى التعاسة التى تسببت فيها لنفسى . لقد كانت تلك هى المرة الأولى التى أقف فيها موقف المذنب ، لقد أصبت أجمل قلب بجرح فى أعمق أعماقه ، ولهذا كانت فترة الندم الرهيب مؤلمة إلى أقصى حد، بل غير محتملة . — ولـكن الإنسان يظل متمسكاً بإرادة الحياة ، ولهـذا شاركت الآخرين مشاركة خالصة، وسعيت إلى حل مشاكلهم، وجمع شملهم إذا تعرض لما يفرقه ، حتى لا يجرى عليهم ما جرى على . ولهـذا اعتادوا أن يطلقوا على اسم كاتم السر ، وكذلك اسم الجوال لكثرة تجوالى فى المنطقة . — . . . واعتدت أن أعيش فى الشارع ، أن أتجول جيئة وذهاباً كالساعى بين الجبل والسهل . وكثيراً ما كنت أسير فى جوانب مدينتى التى ولدت بها — وحيداً أو مع بعض الرفاق — وكأن هـذه المدينة لا تعنى بالنسبة إلى شيئاً ، فأتناول الطعام فى مطعم من المطاعم الكبيرة بحارة « بفارجاسة » وأستأنف تجوالى بعد ذلك . لقد كنت آنذاك متجهاً إلى الدنيا المفتوحة والطبيعة الطليقة بدرجة تفوق كل ما عهدته من قبل . . . »

هذا النص الذى يصور نفسية جوته بعد وداع فردريكة ، يجمع بين التعلق بالحب ، والفرار منه ، السعى إلى الجماعة والفرار منها ، وإذا كان هذان

الأمران يبدوان متناقضين ، فإن الأمر الذى يتجاوز كل تناقض هو حرص جوته على أمور يعينها هى : الحرية والإنطلاق — والاستقلالية الذاتية — والتحرر من القيود — والإنطلاق فى ربوع الدنيا المفتوحة ، وفى أحضان الطبيعة . إنه يتجول فى جنبات فرنكفورت حيث بيت الأسرة ، ولكنه لا يذهب إلى البيت ، بل يتناول طعامه فى مطعم ، ولا يأوى إلى فراشه الأليف ، بل يفضل البقاء فى غابة أو حديقة ، وهو يحدث ضميره ، ويبحث فى قلبه ، ويجد ما يستوجب الندم ، ولكنه يصمم ألا يعود إلى القيد ، حتى ولو كان جميلا .

هذا العنصر الذاتى اتخذ مكانه فى الأعمال المسرحية فى تلك الفترة ، وحدد جوهر مسرحية شديلا بالذات فأصبح هو الصراع بين الذاتية والفردية من ناحية والنظام العام من ناحية أخرى . ولقد تتبع الباحثون هذا المفهوم المسرحى عند جوته خاصة وعند أدباء وشعراء العاصفة والاندفاع الألمان عامة ، وتبينوا أنه يرجع إلى شكسبير أو على الأصح إلى الطريقة التى فهم بها هردر شيكسبير ، والتى أتاحت لأتباع مدرسة العاصفة والاندفاع مفاهيم تختلف عن مفاهيم مسرحية الصراع بين الخير والشر التى كانت معروفة وسائدة حتى ذلك الحين . وليس من الضرورى أن يكون فهم هردر وجوته بعده لشكسبير صحيحاً ، ولكن المهم أن فكرة الصراع بين العظمة والقدر التى راجت فى ذلك الحين ، تحولت على يد جوته إلى صراع بين الفردية والنظام العام ، أو بين فردية البطل الممتزج أشد الامتزاج بوجدان جوته ، وبين النظام العام خارج إطار الخير والشر . « إن ما نسميه شراً هو فى الحقيقة الوجه الآخر للخير ، والشر ضرورى للخير ، فلولاه لما كان ، والشر والخير يدخلان كلاهما معاً فى الكل » .

تركز اهتمام جوته على النزول إلى الأعماق النفسية للأشخاص ، وسلك فى ذلك سبيل مدرسة العاصفة والاندفاع التى رفعت شعارات الطبيعة والفطرية والعبقرية والأصالة والتفرد . كان يضع شخصية متفردة تمتاز بأصالة أو عبقرية من نوع ما فى مواجهة النظام القائم بأبعاده الاجتماعية والبيئية

والأخلاقية والفكرية ، وكانت هـــذه الشخصية فى هـــذا الصراع تمثل وحدة البناء المسرحي الذى تحلل من متطلبات أرسطو . ومن هنا تداخلت الأنواع المسرحية التى كانت محددة ، وأصبح من الممكن أن تختلط المسرحية المأسوية بعناصر هزلية ، والمسرحية الهزلية بعناصر مأسوية . المهم هو الشخصية وما ينطلق منها من تأثير يصل إلى حد تشكيل العالم المحيط بهـــا وما تتعرض له من مؤثرات وبخاصة تلك التى تمثل المحدودية والنهائية .

ويمكننا إذا استحضرنا كل هذه الخلفية الفكرية فى ذهننا أن نفهم إهتمام جوته بمسرحية شتيللا ، وبشخصية فرناندو . أنه اهتمام أصيل فى فكر جوته ووجدانه فى تلك المرحلة : الشخصية المنفردة ، الخارجة على المألوف مثل فاوست وجوتس ويوليوس قيصر وبروميتوس . وإذا كان جوته قد قدم فى مسرحية جوتس فون برليشينجن شخصية الرجل المنفرد المتعطش للعظمة ، فقد تحول فى كلافيجو وشتيللا ، وبخاصة فى شتيللا ، إلى التركيز على النواحى الوجدانية . وقد يمكننا أن نقول إنه توسع فيما بدأ فيه فى جانب من جوانب « جوتس فون برليشينجن » ، فقد عرض جوته شخصية ڤايزلينجن ، الرجل الحائر بين حب هادئ مخلص عميق (تمثله ماريه) وحب جنونى عارم (تمثله أدلهايد) ، والذى دفعه وقوعه فى شبـــاك الحب الجنونى إلى الهلاك محترقاً بناره . وإنما احتار ڤايزلينجن بين الحبين لأنه إنسان تنطوى نفسه — كغيره من البشر ، ولكن على نحو أكثر وضوحاً — على دوافع منوعة متداخلة ومتعارضة ومتناقضة . ومعنى اختلاف الدوافع ، وتعارضها وتناقضها — فى رأى جوته — وقوع الإنسان فى مواقف أو علاقات قد ترتفع به وقد تنخفض ، قد تأتيه بالسعادة وقد تسبب له النحس . فليس الحب دائمـــاً وفى كل الحالات مبشراً بالسعادة ، بل قد يتحول إذا تداخلت دوافع أخرى — كما فى حالة كلافيجو — إلى منزلق يسوق إلى كارثة قد ينجـــو الإنسان منها وقد لا ينجو . وليس الحب ليستمر على حال واحدة ، فطالما تعرض الإنسان من داخله وخارجه إلى دوافع متجدده . متعددة ، متباينة ، تحول الحب

من حال إلى حال . والدافع إلى الانطلاق يلعب دوراً هاماً فى تقلب فرناندو .

كرس جوته مسرحيته شتيللا للحب ، ومن هنا كانت تسميتها « مسرحية للعشاق » . والمحبون فيها مجتمعون على الانتساب إلى الحب ، متفرقون فى مذاهبهم فيه، فكل منهم له طريقة . وهم مجتمعون على التفانى فى الحب، والتنعم بما يناله المحب من متعة ، والصبر الجميل على ما يسببه الحب من عذاب ، وهم مجتمعون على الحياة المتقلبة التى يقلبها الحب على ما يشاء من وجوه ؛ وهم مجتمعون على الابتعاد عن الواقع والنفور منه . إنهـم يعيشون فى عالم من المشاعر والخيالات والأوهام أراد جوته إبرازه منذ بداية المسرحية فصور الحياة الواقعية التى تضطرب فى حانة البريد ، حيث تقف عربات نقل المسافرين والرسائل ، طلباً للراحة ، أو للطعام والشراب ، وجعل الأمر فى تلك الحانة لامرأة تقـول : « ولو أننى فكرت اليوم فى أن أتزوج من جديد ، فلن يكون ذلك إلا لسبب واحد ، وهو أن المرأة تجد وحدها صعوبة بالغة فى تدبير الأمور وتسيير العمل . »

جعل جوته هذا المشهد الذى يمثل الواقع بمثابة نقطة انطلاق ، فهو يمتد إلى بعيد فنرى فيه دنيا كالحديقة الغناء ، وساحة رائعة تبدو فى الأيام العادية كأنها فى يوم عيد ، ثم بيت البارونة ، ومن حوله الحديقـة وبها الصومعة . إنه يمتد مكانياً إلى « شتيللا » . ثم هو يمتد مرة أخرى زمانيـاً إلى الماضى ، إلى الحب الأول، إلى تسيتسيلية . فقد أتى فرناندو بعد سنوات من الغيبة، عائداً إلى شتيللا التى كان قد تعلق بها بعد أن هجر تسيتسيلية . ولم يكن حبه لأى منهما قد تلاشى ، وإذا بالقدر قد دبر له أن تكون تسيتسيلية قد وصلت فى اليوم نفسه ، حيث وجدت ابنتهما عملا لدى البارونة ، وإذا بالقدر قد دبر أيضاً أن تتعلق شتيللا بالصبية وبأمها قبل أن تراها ، فتصر على أن تأتى الأم أيضاً اليها . وبهذا يجمع البيت الحبيب وحبيبتيه فى وقت واحد .

عندما يطل فرناندو من نافذة الفندق يرى عالم شتيللا الذى يتكون من انطباعات أو — إذا أردنا الدقة — من تكوينات متناسقة فى حد ذاتها قوامها عناصر طبيعية مرئية أو مسموعة ملتفة فى إحساسات اللحظة أو ومضات الذكرى . المشهد كله سماوى ، البيت يخيم عليه السكون ، الماء ينساب وبجانبه الإنسان المستغرق فى التأمل والتفكير :

« هأنذا أعود إلى التطلع إليك ، أيها المشهد السماوى . هأنذا أراك مرة أخرى ، أيها المكان الذى شهد سعادتى كلها . فما هذا الهدوء الذى يخيم على البيت كله ؟ وما بال النوافذ قد أغلقت جميعها ، لم يفتحوا أيا منها . وما أشد وحشة القاعة ، وكنا نجلس فيها فنكثر الجلوس . انظر يافرناندو واعياً إلى بيتها كم يتسم بسمات الدير . . . . هذه هى الأشياء كلها تلوح لى جديدة ، وتشد اهتمامى إليها شداً : الأشجار — النافورة — الأشياء كلها — كلها — هكذا كان الماء ينساب من الأنابيب عندما كنت أتطلع معها ، ألف مرة ، آه ، من الشرفة ، وقد استغرق كل منا فى تفكيره ، وخلا إلى نفسه ، وعكف ساكناً على تأمل انسياب المياه . إن خرير الماء ليقع منى موقع اللحن الموسيقى ، اللحن الموسيقى الذى يذكرنى بالماضى . »

هذه بعض ملامح عالم شتيللا . أما شتيللا نفسها فأقرب إلى الملائكة منها إلى البشر . وقد سبق الباحثون فى أعمال جوته إلى اكتشاف مفهوم جوته عن المرأة ، ذلك المفهوم الذى يجعل منها تجسيما للسلوى والغفران والبراءة ، ويجعل منها رمزاً للإنسانية بكل معانيها السامية . يقول فرناندو قبل لقاء شتيللا :

« ألا تشعرين بأنى قد اقتربت منك ، وأنى أوشكت أن آتى إليك لأنسى بين ذراعيك كل شىء؟ » .

ثم يتحدث بعد ذلك عن «الملاك» ، وعن السعادة الغامرة التى نعم بها معها ، راسما بذلك السمات الأولى لصورتها التمهيدية التى تكتمل بتعليقات

الآخرين الذين يعرفونها : رئيسة الحانة مثلا تتحدث عن « الإنسانة الحبيبة » التي تعيش منعزلة كالراهبة، والتي تمثل الخير واللطف والرقة، « إنها تعيش مع خدمها ، وتجمع حولها أولاد الناحية ، وتعامل الجميع باللطف على الرغم من ألمها الدفين . « أما حبيبها الذى هجرها فإنها لا تذكره بالشر على الإطلاق بل « تمدحه وتبكيه » . كذلك لوتسيه تقول عنها « إنها امرأة لطيفه رقيقة » وتضيف : « وستقوم بيني وبينها علاقات طيبة . » هذه الصورة التمهيدية تزداد وضوحاً فى لقاء شتيللا وزومر . إن حب شتيللا لفرناندو حب سماوى : « أى رب السماء . — عندما كنت أرفع — بعد قبلاته — عينى إليك بالدعاء . . عندما كنت أضع قلبي على قلبه فيتأجج لهيبه ، وأشرب بشفاه مرتجفة روحه العظيمة وأحتويها فى أعماق ، ثم أرفع عينى إليك بدموع النعيم وأدعوك من كل قلبي : يارب اجعلنا من السعداء . . . كنت تستجيب لى وتجعلنا من السعداء . » هذا التسامي بالحب تصفه مدام زومر بقولها : « إنك لا تزالين تعيشين فى مشاعر الإنسانية فى أبكر وأصفى صورها . » — حب شتيللا يمثل إذن الأصالة والفطرة ، ويفى بمتطلبات مدرسة العاصفة والاندفاع . فى حديثها إلى مدام زومر تقول مثلا : « إننى عندما أهوى أحياناً من فكرة إلى فكرة ، وأسوق أمام روحى أحلام الماضى اللطيفة ، وأهفو إلى مستقبل مفعم بالأمل ، وأسير هكذا فى ضوء القمر الخافت بحديقتى ، جيئة وذهاباً ، أفاجأ بهذا الاحساس يتملكنى ، ويستبد بى ، فأصبح وحيدة أمد ذراعى بلا جدوى فى كل اتجاه ، وألهج بسحر الحب عنيفاً فياضاً حتى أظن أن على أن أقبض على القمر وأجذبه من أعاليه — وأظل وحيدة لا يرتد إلى صوت من الخميلة — وحيدة أرى النجوم تطل على من أفلاكها فاترة لطيفة تشهد عذابى » .

وتكتمل صورة المحبة الولهانة الملائكية السماوية فى الفصل الثالث الذى يشهد لقاءها مع فرناندو . إنها على قول فرناندو « الصبابة الأبدية والطيبة السرمدية »

حتى إذا تكشفت لها المحنة ، وظهرت الحبيبة الأخرى : وبدا على المحب أنه سيفلت من يدها ، لم تنقلب على حبيبها ، ولم تتنكر لحبها ، بل سارت وهى تخطر بين سعادة الحب وبؤسه إلى الموت راضية النفس قريرة العين ، وقد استحالت إلى روح خالصة . وسواء أخذنا بالنهاية السعيدة أو النهاية المأسوية للمسرحية ، فإن الحب فى كلتا الحالتين لا تنطفىء جذوته ، ولا تخبو ناره ، ولا يتلون ، ولا يتقلب ، بل يظل هو الدافع الأول والأخير .

قلنا إن المسرحية تبدأ بعالم واقعى تتوسطه صاحبة الحانة ، وقلنا إنه يمتد إلى عالم شتيللا أولا ، ثم إلى عالم تسيتسيلية بعد ذلك . وإذا كان السبيل إلى عالم شتيللا قد انبسط يسيراً سهلا على صفحة المكان ، وأشرقت عليه صورة شتيللا التمهيدية قبل أن تظهر بنفسها وعلى حقيقتها ، فإن عالم تسيتسيلية غير سبيله إلينا كل التغيير . إننا نلتقى فى البداية بالصورة الحالية لهذه المرأة التى ألقت تعاسة الحب عليها غلالة حزينة يراها الناس ، ولكنها لا تخفى من ماضى الحب الجميل الدائم شيئاً . وهكذا ننزل مع تطور الأحداث خطوة خطوة إلى أعماق هذه النفس المرهفة ، ونرى صورتها الأخرى ، صورتها الحقيقية ، ونرى مع الذكريات عالم الحب الذى تتوسطه . لقد اتبع جوته فى تصوير تسيتسيلية وعالمها منهجاً تختلف عن منهجه فى تصوير شتيللا ، بل يسير فى اتجاه مضاد له ، كخطين مستقيمين ، يمتدان ثم يلتقيان فى مكان معلوم ، ويتحولان إلى منحنيات تتداخل وتتقاطع وتتلاقى وتتفرق .

الصورة الأولى لتسيتسيلية هى التى تتنكر فيها على هيئة مدام زومر : أم لبنت فى ميعة الصبا (صريحة ، عنيدة ، شجاعة كريمة ، متفتحة للدنيا) . ما تكاد تنزل فى حانة البريد حتى يتضح المستويان اللذان تقوم عليهما شخصيتها : « الحال فى الماضى » و « الحال الآن » على حد تعبيرها : السعادة والعذاب . « وهل هناك مكان يخلو من سبب من أسباب العذاب ؟ كم كانت

الحال فيما مضى مختلفة ، ياحبيبتى ، عندما كان أبوك يسافر معى ، عندما كنا نستمع بأجمل أوقات حياتنا فى عالم حر طليق ، فى سنوات زواجنا الأولى . لقد كان كل شىء يكتسى فى نظرى بسحر جديد . ولكم مررت ، وهو يطوقنى بذراعه ، على ألف من الأشياء مسرعة ، فى وقت كان كل شىء صغير فيه يثير ، بفعل حبه وروحه ، اهتمامى .

ثم تظهر ملامح أخرى من شخصيتها عندما تلتقى بشتيللا . فهذه هى شتيللا تقــول لها : « ما كدت أنظر إليك حتى أحسست بالثقة فيك ، والاحترام لك . » وما يدور الحديث بين المرأتين المحبتين حتى يضىء وجه تسيتسيلية (مدام زومر) « ناصعاً كأوجه الملائكة » وتصطبغ وجنتاها بالحمرة ، فتشبه زهرة الحب . — ويشتد التقارب بين المرأتين ، يعبر عن ذلك قول شتيللا : « هات يدك لنتعاهد على أن نأتلف فى جماعة تبقى معا . من هــذه اللحظة لن أتركك . »

وما يتم هــذا الاتفاق حتى تتجمع الشواهد على أن فرناندو قد عاد ، وأنه جاء بحثاً عن شتيللا . — ولكن اللقاء الذى يتم بين فرناندو ووكيله (فى الفصل الثالث) يبين أن فرناندو قد بحث عن زوجته تسيتسيلية فلم يجدها وأنه علم أن أموالها ضاعت ، وأنها تركت منزلهــا العظيم الذى شهد سعادتها وبؤسها ، مرغمة بعد أن استولى عليه أصحاب الحقوق ، وخرجت هى وابنتها بحثاً عن عمل يدوى « تعيشان منه عيشة بائسة » .

وإذا كانت شتيللا قد رجت فرناندو أن يتحدث إلى المرأة المجهــولة ليقنعها بالبقاء ، فإنها قد مهدت عن غير علم للقاء الزوجين الحبيبين ، ولتعقيد المشكلة . وفى هــذا اللقاء تكتمل صورة المحبة كما يريدها جوته : تسعد وتتألم ، ولكنها تبقى مخلصة لحبيبها متفهمه لأحواله مهما بلغت من الغرابة . تحدث مدام زومر فرناندو دون أن يتصارحا بحقيقة شخصيتهما — وأن كل منهما قد عرف الآخر — فتقول له : « لقد كان يحبنى حقاً . وإن تقى من حبه لى لتسارى تقى من حبى له . ولقد مر علينا وقت لم يكن فيه يعرف

شيئاً سوى أن يرانى سعيدة ، وأن يجعلنى سعيدة . . . ثم اصطحبنى إلى طريق الآلام ليتركنى وحدى فى صحراء جرداء رهيبة . . . لقـــد كان يحبنى دائماً . دائماً . ولكنه كان بحاجة إلى أكثر من حبى . وكان على أن أقتسم ما كان يصبو إليه ، ربما مع خليلة اتخذها ... وأخيراً هجرنى ... وهوى قلبى بعد البكاء المرير واليأس العنيف إلى الخور والضعف . » ولكنهـــا ترفض أن تؤثمه : « ليس هو المذنب الأثم . إننى آسى لكل رجل يتعلق فؤاده بامرأة . » وتلقى اللوم على نفسها لأنها تحولت إلى ربة بيت ولم تستطيع أن تستمر فى تأدية دور المحبة التى تساير فكره المتقد وتطلعه إلى الانطلاق والحرية .

وتحتوى الإثنين لحظة من السعادة الغامرة ، تعود به تسيتسيليه إلى «جنة» فرنانلو ، ويجد هو الراحة لقلبه ولضميره ، فهو يعترف بأنه لم يجد بعد أن هجرها راحة ونعيما « حتى بين ذراعى هذا الملاك » ، أى شتيللا ، لأن عذاب الضمير لم يكن يتركه إلا ليعاوده . ويعلن فرنانلو أنه إنما ترك شتيللا يوم أن تركها ليعود إلى تسيتسيلية . ويعرض على زوجته أن يتركا شتيللا ويرحلا ليستأنفا حياتهما معاً من جديد .

وإذا كانت تسيتسيليه قد ترددت فى القبول تردداً يصل إلى الرفض ، فقد كشف الفصل الرابع عن استحالة تخلص فرنانلو من شتيللا . كان الحب بينهما أقوى من أن يهزمه الهرب . ولقـــد بلغ تفانى تسيتسيليه مداه عندما قررت أن تخرج هى من حياته وتتركه ليسعد مع شتيللا ، فلم تتسرب الكراهية إلى قلبها فى أية صورة ، وظلت تناديها بـ « ياحبيبتى الحلوة . » و « يا أختاه » . وتلخص موقفها فى عبارة واضحة تقولها لفرنانلو : « ... ثم كان أن وجدتك ، وأوحى إلى وجودك حياة جـــديدة ، وبث فى قوة جديدة . إننى أحس يافرنانلو بأن حبى لك ليس أنانياً ... إن قلبى ، يافرنانلو ، دافق عامر من أجلك . وإحساسى نحوك هو إحساس زوجة تستطيع عن حب أن تضحى حتى بحبها » .

ويجرى جوته على لسان تسيتسيليه فى النهاية الأولى عبارة موجهة إلى فرناندو «كلانا لك» . وفى النهاية الثانية عبارة «أنا لن أتركك . بل سأظل أمسكك بكل سلطان الحب والإيمان . » موجهة إلى شتيللا . وقد اعتمد جوته فى معالجة موضوع حب الرجل لامرأتين فى وقت واحد على أسطورة ألمانية قديمة ترجع إلى العصر الوسيط هى أسطورة الجراف (البارون) فون جلايشن ، الذى اشترك فى الحروب الصليبية ، بدافع من زوجته الحبيبة ، وتعرض فى أثناء المعارك للموت فأنقذته امرأة دفع القدر بها إليه فأحبها وأخلص لها جزاء لها على صنيعها ، فلما عاد إلى ألمانيا رضيت زوجته بالحبيبة الثانية ، بل أكبرت صنيعها وأحبتها وقالت لها : « ليكن لكل واحدة منا ، تناله كاملا دون أن تسلب الأخرى شيئاً » . وتحــكى الأسطورة أن رب السماء سعد بهذا الحب وباركه .

وقد يختلف النقاد فى تقييم المضمون الأخلاقى للمسرحية قياساً على مفاهيم الثقافة الأوربية ، ولكن جوته كان أبعد الناس عن أن يسجن نفسه فى إطار ثقافة معينة ، فى عصر معين . وإذا كان قد استقى مسرحيته الأولى « أمينة » أو « نزوة العاشق » من قصص « ألف ليلة وليلة » ، فقد عاد بهذه المسرحية إلى عالمها مرة أخرى وأقام للحب فيها صرحا لا يبيد .

يوهان ڤولفجنــج فون جوتـــه

شـــتيـــللا

Stella

الأشخاص

شتيللا	Stella
تسيلسيليه (اسمها فى البداية مدام زومر)	Cacilie (Madame Sommer)
فيرناندو	Fernando
لوتسيه	Lucie
وكيل دائرة البارون	Verwalter
رئيسة حانة البريد	Postmeisterin
آنشن	Anndchen
كارل	Karl
خادم	Bedeinte

الفصل الأول

(فى حانة البريد)

(يأتى إلى السمع صوت نفير الحوذى)

(رئيسة حانة البريد .)

رئيسة حانة البريد : ياكارل! ياكارل !

(الصبى يأتى)

الصبى : نعم ؟

رئيسة حانة البريد : فى أى داهية كنت أيها الصبى ؟ اخرج من فورك فقد أقبلت عربة البريد . وعليك أن تدل المسافرين على الطريق إلى هنا ، وأن تحمل عنهم أمتعتهم . تحرك . بسرعة . ما لك تعود فتنظر هذه النظرات الممجوجة ؟

(الصبى يخرج . الرئيسة تلاحقه بالكلام)

انتظر حتى أخرج من بدنك روحك المعوجة المقززة . لابد للصبى الذى يعمل فى حانة تستقبل المسافرين أن يكون دائم النشاط ، دائم البشاشة . مثل هذا الصبى اللئيم ، عندما يكبر ويصبح رجلا ، يصبح رجلا فاسداً كل الفساد . ولو أننى فكرت اليوم فى أن أتزوج من جديد ، فلن يكون ذلك لا لسبب واحد ، وهو أن المرأة تجد وحدها صعوبة بالغة

ـود بالبريد نظام النقل بعربات تجرها الخيول ، وكان معروفا منذ ألمانيا فىأقدم العصور ، لخدمةالمسافرينولتوصيل البضائع والرسائل . وكانت حانات كثيرة تقوم فى نقاط كثيرة على الطريق ، يبيت فيها المسافرون ويجدون فيها الطعام والشراب ، وكانت بها حظائر للخيل وأماكن للعربات .
(المترجم)

في تدبير الأمور وتسيير العمل .

(مدام زومر ولوتسيه في ثياب السفر ، كارل)

لوتسيه (تحمل حقيبة خفيفة . موجهة الكلام إلى كارل) : دع هذه فهي ليست ثقيلة ، واحمل عن أمي حقيبتها .

رئيسة حانة البريد : تحت أمركن ، سيداتي . إنكن تأتين مبكرات ، ولم نعهد العربة في هذا الموعد من قبل .

لوتسيه : لقد أوتينا حوذياً شاباً مرحا جميلا يود الإنسان أن يجتاز معه ربع الدنيا كلها . وكنا اثنتين فقط في العربة ، ولم يكن معنا من المتاع إلا القليل .

رئيسة حانة البريد : إذا كنتما تريدان تناول الطعام فأرجوكما التكرم بالانتظار ، لأن الطعام لم يجهز بعد .

مدام زومر : هل لي أن أطلب الآن شيئاً من الحساء ؟

لوتسيه : أما أنا فلست على عجل . ويمكنك أن تقدمي إلى والدتي طلبها إلى أن ينتهي إعداد الطعام .

رئيسة حانة البريد : في الحال .

لوتسيه : إنها تريد حساء ممتازاً .

رئيسة حانة البريد : سآتيها بأحسن ما عندي . (تخرج)

مدام زومر : يدهشني أنك لا تكفين عن إصدار الأوامر . ولقد تصورت أنك قد عقلت أثناء الرحلة . وكنا دائماً ندفع أكثر من قيمة الطعام الذي نتناوله . وفي ظروفنا هذه .

لوتسيه : لم يحدث أن خلت أيدينا .

مدام زومر : ولكننا كنا على وشك ذلك .

(يدخل الحوذي)

لوتسيه : كيف حالك أيها الحوذى الماهر ؟ إنك تريد مكافأة ، أليس كذلك ؟

الحوذى : ألم أسرع بالعربة وكأنها عربة خاصة ؟

لوتسيه : ومعنى هذا أنك تستحق أجراً خاصاً . أليس كذلك ؟ لو كان لدى خيل لأتخذتك حوذياً عندى .

الحوذى : وأنا تحت أمرك وأنت بلا خيل .

لوتسيه : هكذا .

الحوذى : شكراً يا آنسة . وهل تستأنفين السفر ؟

لوتسيه : بل سنبقى هنا .

الحوذى : فى حفظ الله . (يخرج)

مدام زومر : إننى أقرأ على وجهك أنك دفعت إليه مبلغاً ضخماً .

لوتسيه : فهل كان ينبغى أن ينصرف عنا متبرماً ؟ لقد كان لطيفاً معنا طوال الوقت . إنك تقولين دائماً يا أماه إننى صلبة الرأى ، عنيدة . وأياً كان الأمر فأنا لست أنانية .

مدام زومر : أرجوك يالوتسية ، لا تتجاهلى قيمة ما أقوله لك . إننى أقدر صراحتك ، وشجاعتك ، وكرمك ، ولكننى أرى أن هذه الفضائل ينبغى أن تكون فى موضعها .

لوتسيه : هذا المكان اللطيف يعجبنى جداً . هل هذا البيت هناك هو بيت السيدة التى سأكون فى معيتها ؟

مدام زومر : يسعدنى أن يعجبك مكان مستقبلك .

لوتسيه : أراه هادئاً ساكناً . لقد لفت هدوئه وسكونه انتباهى . والميدان الكبير يبدو وكأنما كان اليوم يوم الأحد . والسيدة الكريمة لديها ، على ما سمعت ، حديقة غناء ، وهى على ما سمعت ، سيدة طيبة . سنرى كيف يكون التفاهم

بيننا . لماذا تتلفتين حواليك يا أماه ؟

مدام زومر : دعيني يالوتسية . أنت أيتها البنت السعيدة التي لا تذكرين شيئاً . لقد كانت الحال في الماضي غير الحال الآن. وليس هناك شيء يحز في نفسي أكثر من وضعي قدمي في محطة من محطات البريد .

لوتسيه : وهل هناك مكان لا تجدين فيها ما تعذبين به نفسك ؟

مدام زومر : وهل هناك مكان يخلو من سبب من أسباب العذاب ؟ كم كانت الحال فيما مضى مختلفة ، يا حبيبتي ، عندما كان أبوك يسافر معي ، عندما كنا نستمتع بأجمل أوقات حياتنا في عالم حر طليق ، في سنوات زواجنا الأولى . لقد كان كل شيء يكتسي في نظري بسحر الجديد . ولكم مررت ، وهو يطوقني بذراعه ، على ألف من الأشياء مسرعة ، في وقت كان كل شيء صغير فيه يثير ، بفعل حبه وروحه ، اهتمامي .

لوتسيه : وأنا كذلك أحب السفر .

مدام زومر : وكنا ، إذا مر بنا يوم حار ، أو إذا اجتزنا عقبة من من عقبات القدر ، أو عبرنا في الشتاء طريقاً من الطرق الخطرة ، نحس ونحن ندخل حانة دون هذه التماساً للراحة أو لشيء هين من المتعة ، ونجلس على مقعد خشبي خشن ، ونأكل معاً عجة رخيصة وشيئاً من البطاطس ، نحس ... كانت الأشياء كلها تبدو على نحو يختلف كل الاختلاف عن المألوف .

لوتسيه : ولقد آن أوان نسيانه .

مدام زومر : أتعرفين معنى هذا ، أتعرفين معنى النسيان . أنت أيتها البنت الطيبة لم تفقدي بحمد الله شيئاً لا يمكن تعويضه . أما أنا

فقــد ولت عني سعادة الحــياة كلها ، وتملكني اليأس . منذ اللحظة التي أيقنت فيها من أنه هجرني . افقــدت نفسي ، وفقدت الإيمان بالرب . إنني لا أكاد أستطيع تذكر ذلك الموقف .

لرتسيه : وأنا لا أذكر إلا أنني كنت جالسة على سريرك ، وأنني كنت أبكي لأنك كنت تبكين . كان ذلك في الحجرة الخضراء ، على السرير الصغير . ولقد تألمت لهــذه الحجرة بالذات أشد الألم عندما اضطررنا إلى بيــع البيت .

مدام زومر : كنت آنذاك في السابعة من عمرك ، ولم يكن بمقدورك أن تحسي بما فقدت ...

(أنشن تأتي حاملة الحساء . رئيسة محطة البريد . كارل)

أنشن : هذا هو حساء السيدة .

مدام زومر : شكراً يا حبيبتي . هل هذه ابنتك ؟

رئيسة حانة البريد : بل ابنة زوجي ، ياسيدتي . ولكنها بنت ممــتازة ، تعوضني عن الأولاد الذين حرمت منهم .

مدام زومر : هل تلبسين الحــداد ؟

رئيسة حانة البريد : نعم ، على زوجي الذي فقــدته منذ ثلاثة أشهر ، ولم نكن قد عشنا معاً سوى ثلاثة أعوام لم تكتمل .

مدام زومر : ولكن يبدو عليك أنك قد وجدت السبيل إلى كثير من السلوان .

رئيسة حانة البريد : آه ياسيدتي . إن الواحدة منا ليس لديها الوقت لتبكي عليه أو لتصلي من أجله . فالعمل هنا مستمر أيام الأسبوع وأيام الأحد . وإذا لم يكن القسيس يذكر النعص أحياناً ، أو تسمع الواحدة منا نشيداً للعزاء —— كارل هات بعض المفارش . وضع آنية عند نهاية المائدة .

لوتسيه : لمن هذا البيت هناك ؟

رئيسة حانة البريد : لسيدتنا البارونة ، سيدتنا المحبوبة . التى نحبها من كل قلبنا .

مدام زومر : يسعدنى أن أسمع من جارة لها تأكيداً للخبر الذى حمله الناس الينا فى مكان بعيد . وإنما يهمنى الأمر لأن ابنتى ستبقى لديها فى المستقبل وتكون فى معيتها .

رئيسة حانة البريد : أتمنى لك السعادة يا آنسة .

لوتسيه : وأنا أتمنى أن تعجبنى .

رئيسة حانة البريد : إذا لم تروقك صحبة البارونة فسيكون معنى هذا أن لك ذوقاً شاذاً وغريباً كل الغرابة .

لوتسيه : لا بأس . فأنا، إذا كان على أن أشكل سلوكى إرضاء لأحد ، أحتاج إلى عون القلب والإرادة احتياجاً لابد لى منه،وإلا فلن أوفق .

رئيسة حانة البريد : هه . سنعود إلى الكلام فى ذلك عما قريب ، وستقولين لى هل صدقتك الحديث أم لا . إن الذى يعيش فى معية سيدتنا الكريمة ينعم بالسعادة . ولابد من أن تعمل ابنتى ، عندما تكبر ، فى خدمتها بضعة سنوات على الأقل ، ولسوف تجنى من وراء ذلك خيراً يغمرها طوال حياتها .

أنشن : ستعرفين معنى هـــذا عندما ترينها . إنها لطيفة جداً . وأنت لا تتصورين مدى شوقها إليك . إنها تحبنى أنا أيضاً . ألا تريدين الذهاب إليها ؟ إذن فسأصحبك إلى هناك .

لوتسيه : لابد أن أصلح هندامى أولا ، وأن أتناول شيئاً من الطعام .

أنشن : وهل تسمحين لى يا أمى العزيزة بأن أذهب إلى هناك ؟ أريد أن أسبق الآنسة ، وأن أبلغ السيدة البارونة بأنها قد حضرت .

رئيسة حانة البريد : اذهبي .

مدام زومر : قولى لهـــا ، يا صغيرتى ، إننا نريد أن نحظى برؤيتها بعد أن نفرغ من تناول الطعام مباشرة .
(أنشن تخرج)

رئيسة حانة البريد : صغيرتى متعلقة بها على نحو خارق للمألوف ، والحق أنها أحسن إنسان فى الدنيا ، إنها تجــد السعادة كل السعادة مع الأولاد ، فهى تعلمهم الكثير من الأعمال اليدوية ، وتدربهم على الغناء . وهى تدعو بنات الفلاحــين إليها ، وتحرص على أن يكن فى صحبتها ، حتى يأتى الواحدة منهن نصيبها ، فتهىء لها الأمور على خير حال ، وهـــكذا تقضى وقتها منذ أن تركها زوجها . إن الإنسان لا يفهم كيف يمكن أن تكون على هـــذا الود على الرغم من تعاستها .

مدام زومر : أليست أرملة ؟

رئيسة حانة البريد : الله وحده يعلم . لقد رحل زوجها منذ ثلاث سنوات ، لم يعد أحـــد يرى له أثراً ، أو يسمع عنه خبراً . وكانت تحبه كل الحب ، وتفضله على العالمين . ولم يكن زوجى ، إذا بدأ الحديث عنهما ، ينتهى إلى نهاية . وأنا نفسى أرى أن قلبها لم يعد فى الدنيا له مثيل . وهى قد اعتادت ، إذا حل اليوم الذى رأت زوجها فيه للمرة الأخيرة ، أن تخلو إلى نفسها ، فلا تستقبل كائناً من كان ، وتحبس نفسها عن الناس كلية ، تفعل هذا عاماً بعد عام . وإذا هى تحدثت عنه ، فى أى يوم من الأيام ، نفذ حديثها إلى أعماق نفس محدثها .

مدام زومر : المسكينة .

رئيسة حانة البريد : والحديث عن هذا الموضوع يطول .

مدام زومر : ماذا تقصدين .

رئيسة حانة البريد : أنا لا أتكلم فى هـذا إلا كارهة .

مدام زومر : أرجوك .

رئيسة حانة البريد : على أن تعديني بحفظ كل سر أأتمنك عليه . لقد جاء الاثنان إلى هنا منذ ثمانية أعوام ، فابتاعا إقطاعية الفرسان . ولم يكن أحد يعرفهما . كنا ننادى السيد بصاحب العزة ، وننادیها بصاحبة العصمة . وكنا نظنه ضابطاً خدم فى الخارج فأثرى ، وجاء بعد التقاعد ساعياً إلى الراحة . أما هى فكانت آنذاك فى ريعان الصبا ، لا تجاوز السادسة عشرة من عمرها ، وكانت جميلة كأنها ملاك كريم .

لوقسيه : معنى هذا أنها لا تتجاوز الآن الرابعة والعشرين ؟

رئيسة حانة البريد : ولكنها عانت الكثير من الكرب بالقياس إلى سنها الصغيرة . وكان لهـا طفلة ماتت بعد قليل ، فدفنوها فى قبر الحديقة لا يغطيه سوى النجيل . فلما رحل البارون أنشأت صومعة هناك . فى الحديقة . وأعدت لهـا قبراً بجوار قبر طفلتها . — لقد كان زوجى المرحوم رجلا طاعناً فى السن ، صلباً لا تتحرك عواطفه بسهولة ، ولكن الحديث عن سعادة الاثنين عندما كانا يعيشان هنا معاً ، كان يحرك قلبه ، بل كان أحب الأحاديث إليه . وإنى به يقـول : لقـد كان الواحد منا يحس كأنما تحول إلى إنسان آخر . عندما يرى كيف يحب أحدهما الآخر .

مدام زومر : قلبى معها .

رئيسة حانة البريد : هكذا الدنيا . ويقـولون إن الرجل كان يؤمن بعقائد

عجيبة . وهو ، على أية حال ، لم يكن يذهب إلى الكنيسة . والإنسان إذا لم يكن له دين ، لا يعرف له ربا ، ولا يتمسك بنظام . وذات يوم قال قائل إن البارون قد رحل ، وإنه قد سافر ولم يعد .

مدام زومر (لنفسها) : صورة طبق الأصل لما جرى على .

رئيسة حانة البريد : وامتلأت الأفواه كلها بالحديث عنهم ، وكثر القيل والقال . وقد شهدت هذا بنفسي لأنه جرى في الوقت الذي أتيت فيه إلى هنا ، أي قبل أعوام تكتمل في الربيع القادم ثلاثة ، وكنت إذ ذاك امرأة في ميعة الصبا . كان الناس يخوضون في حديث الاثنين ، ويذهبون فيه مذاهب مختلفة كل منهم يدعى أنه يعرف رواية غير التي يعرفها الآخرون . وتهامس البعض بأنهما لم يكونا متزوجين . ولكن أرجوك ألا تقولى لأحد إنني أنا التي أخبرتك هذا الخبر . وقال القائلون إنه رجل عظيم القدر ، وإنه خطفها من أهلها ، وما إلى ذلك من كلام الناس . آه . إذا خطت بنت خطوة من هذا النوع ظلت طوال حياتها تكفر عنها .

(أنشن تأتى)

أنشن : السيدة البارونة ترجوكما الحضور إليها حالا ، فهى تريد أن تتحدث إليكما لحظة ، وتحب أن تراكما .

لوتسيه : لا يليق أن نذهب إليها في هذه الثياب .

رئيسة حانة البريد : اذهبا هكذا ، بثيابكما هذه ، صدقانى إنها لا تهتم بهذه الأمور .

لوتسيه : هل تريدين مرافقتى أيتها الصغيرة ؟

أنشن : حباً وكرامة .

مدام زومر : لوتسية ، أريد أن أقول لك كلمة (رئيسة محطة البريد تبتعد)

لا تنقلي كلمة واحدة ممـــا سمعنا . ولا تتحدثي بشيء إطلاقاً عن وضعنا وأحوالنا وما جرى علينا . وكوني مهذبة معها .

لوتسيه : لا تشغلي بالك . سأقول لهـــا إن أبي كان تاجراً ، وإنه رحل إلى أمريكا وعات . ولهـــذا فإن أحوالنا أصبحت —— لا تشغلي بالك . لقد أعدت عليك القصة التي اتفقنا عليها مرات كافية (بصوت عال) ألا تريدين أن ترتاحي قليلا ، فما أظنك إلا بحاجة إلى الراحة . ولسوف تعطيك صاحبة الحانة حجرة لطيفة فيها سرير .

رئيسة حانة البريد : عندى حجرة جميلة هادئة على الحديقة (إلى لوتسية) أرجو أن تعجبك البارونة (تخرج لوتسية مع أنشن)

مدام زومر : لا تزال ابنتي تحلق فى آفاق عالية إلى حد ما .

رئيسة حانة البريد : هكذا الشباب . ولن تلبث أمواج الكبرياء أن تهـــدأ

مدام زومر : بل هي تسير من سيء إلى أسوأ .

رئيسة حانة البريد : تعالى ياسيدتي ، تفضلي .

(يتناهى إلى السمع صوت حوذى)

(فرناندو فى زى الضباط . خادم)

الخادم : هل أسرج الخيول وأحمل الأمتعة إلى العربة ؟

فرناندو : بل احملها إلى هنا كما قلت لك ، احملها إلى هنا . فلن نستأنف السفر . أسمعت ؟

الخادم : لن نستأنف السفر ؟ لقد قلت ——

فرناندو : قلت لك إن عليك أن تطلب حجرة وأن تحمل أمتعتي إليها .

(الخادم يخرج)

فرناندو (يتقدم نحو النافذة) : هأنذا أعود إلى التطلع إليك ، أيها المشهد السماوى . هأنذا أراك مرة أخرى أيها المكان الذى شهد سعادتي

كلها . فما هـــذا الهـــدوء الذى يخيم على البيت كله ؟ وما بال النوافذ قد أغلقت جميعها ، لم يفتحوا أياً منها .. وما أشد وحشة القاعة ، وكنا نجلس فيها فنكثر الجلوس . انظر يا فرناندو واعياً إلى بيتها كم يتسم بسمات الدير : وما هى إلا سمات ترضى أملك ، وتؤكد توقعاتك . وهل يملك عليها فرناندو فكرها فى عزلتها هذه — . وهل هو شغلها الشاغل ؟ وهل يستحق فرناندو منها هـــذا ؟ آه . إننى أحس كأننى عدت إلى الحياة بعد نوم كالموت طويل بارد خال من البهجة والسرور هذه هى الأشياء كلها تلوح لى جديدة وتشد اهتمامى : الأشجار .. النافورة .. الأشياء كلها .. كلها . هكذا كان الماء ينساب من الأنابيب عندما كنت أتطلع معها ، ألف مرة ، آه ، من الشرفة ، وقد استغرق كل منا فى التفكير ، وخلا إلى نفسه ، وعكف ساكناً على تأمل انسياب المياه . إن خرير المياه ليقع منى موقع اللحن الموسيقى الشجى ، اللحن الموسيقى الذى يذكرنى بالماضى . — وماذا عنها هى ؟ ستكون كما كانت . نعم . إن قلبى يحدثنى يا شتيللا بأنك لم تتغيرى . إنه يدق من أجلك ويبعث بدقاته نحوك . إنه يدفعنى إليك . ولكننى لا أريد ، ولا يجوز لى . فى حالتى هذه . لا بد أن أرتاح أولا ، وأن أتأكد من أننى فعلا هنا ، لا يخدعنى حلم من الأحلام التى كانت تراودنى دائماً فى نومى وصحوى ، ويحملنى من أبعد البقاع إلى هنا . شتيللا . شتيللا . أنا قادم إليك . ألا تشعرين بأننى قد اقتربت منك وأننى أوشك أن آتى إليك لأنسى بين ذراعيك كل شىء ؟ — أما أنت يا شبح زوجتى التعيسة ، فإذا حمت حوالى ايها الشبح الغالى ، اصفح عنى ودعنى . هأنتذا قد انصرفت . دعنى أنساك حتى أنسى بين ذراعى الملاك كل شىء : نوازل القـــدر ، وآلامى ، وما فقدته

وضيعته ، وما تملكنى من ندم — إنى قريب منها كل القرب ، وبعيد عنها كل البعد ، فى آن واحد — لا أستطيع ، لا ، أنا لا أستطيع . لابد لى من أن أستريح ، وأستجم وأستجمع قواى ، فإنى — لو ذهبت إليها هكذا — سأختنق عند قدميها .

(رئيسة حانة البريد)

رئيسة حانة البريد : هل يرغب السيد الكريم فى تناول الطعام ؟

فرناندو : هل لديك طعام كاف ؟

رئيسة حانة البريد : آه . نعم . ولكننا ننتظر عودة آنسة ذهبت لزيارة البارونة حتى نمد المائدة .

فرناندو : وكيف حال سيدتكم البارونة ؟

رئيسة حانة البريد : هل تعرفها ؟

فرناندو : لقد كنت أختلف إلى هـــذا المكان قبل أعوام . وماذا يفعل زوجها ؟

رئيسة حانة البريد : الله يعلم . إنه فى الدنيا البعيدة .

فرناندو : هل رحل إلى بلاد بعيدة ؟

رئيسة حانة البريد : نعم هجر الإنسانة الحبيبة ورحل . عفا الله عنه .

فرناندو : لابد أنها عرفت كيف تتسلى عنه .

رئيسة حانة البريد : أتظن ذلك ؟ — إذن فلست تعرفها إلا قليلا . إنها تعيش كالراهبة ، منعزلة طوال الوقت الذى عرفتها فيه . لم تستقبل إنساناً غريباً ، ولم تتلق زيارة من الجيران . إنها تعيش مع خدمها ، وتجمع حولها أولاد الناحية ، وتعامل الجميع باللطف على الرغم من ألمها الدفين .

فرناندو : ولكننى أريد أن أزورها .

رئيسة حانة البريد : زرها . إنها تدعونى أحياناً لزيارتها — زوجة رئيس الإدارة وزوجة راعى الكنيسة وأنا — وتتناقش معنا فى موضوعات عديدة . ونحن نتحاشى ، بطبيعة الحال ، تذكيرها بالبارون . إلا مرة واحدة ذكرناه . والله وحده يعلم ما جرى لنا عندما بدأت تتحدث عنه ، وتمدحه وتبكيه . لقد بكينا جميعاً ، يا سيدى ، كما يبكى الأولاد . ولم نستطع تمالك أنفسنا .

فرناندو (لنفسه) : إنك تستحق منها ذلك . (بصوت عال) هل أعلمت الخادم بالحجرة التى حجزت لنا ؟

رئيسة حانة البريد : رقم اثنين ، أعلا الدرج . يا كارل . ارشد السيد الكريم إلى مكان الحجرة . (فرناندو يخرج مع الصبى)

(لوتسيه وأنشن تدخلان)

رئيسة حانة البريد : هه ، كيف الحال ؟

لوتسيه : إنها امرأة لطيفة ، رقيقة ، وستقوم بينى وبينها علاقات طيبة . لم يكن ما قلته عنها مبالغة . لقد تعلقت بى ، ولم تكن تريد أن تدعنى أنصرف حتى وعدتها وعداً مؤكداً بأننى سأعود إليها بعد تناول الطعام ومعى والدتى وأمتعتى .

رئيسة حانة البريد : هذا ما توقعته . هل تحبين تناول الطعام الآن ؟ لقد نزل عندنا ضابط جميل المحيا ، فارع القامة ، سيأتى إلى المائدة ، إلا إذا خشيته .

لوتسيه : لا ، على الإطلاق . إننى أفضل مخالطة الجند على مخالطة غيرهم من الناس . فهم على الأقل لا يتلونون . ربما [illegible] لإنسان حتى يميز لأول وهلة الطيب من والخبيث . هل أمى نائمة ؟

رئيسة حانة البريد : لا أعرف .

لوتسيه : لابد من أن أذهب وأطل عليها . (تخرج)

رئيسة حانة البريد : كارل . لقد نسى الصبى الملاحة مرة أخرى . هل هذا

غسيل ؟ انظر إلى الأكواب. لو كنت تساوى ثمن هذه الأكواب لحطمتها على رأسك .

(فرناندو يدخل)

رئيسة حانة البريد : لقد عادت الآنسة . وستأتى إلى المائدة حـــالا .

فرناندو : من هى ؟

رئيسة حانة البريد : لا أعرفها . يبدو أنها من أسرة طيبة ، ولكنها رقيقة الحال وقد أتت لتلتحق بمعية البارونة .

فرناندو : هل هى صغيرة السن ؟

رئيسة حانة البريد : صغيرة السن جداً ، ولكنها جريئة معتدة بنفسها . وأمها تنزل هنا أيضاً ، فى حجرة بالطابق العلوى .

لوتسيه (تدخل) : مرحباً .

فرناندو : يسعدنى أن أجد على المائدة صحبة جميلة .

لوتسيه : (تنحنى)

رئيسة حانة البريد : تعالى يا آنسة . هنا . وأنت تتكرم بالجلوس فى هـــذا المكان .

فرناندو : ونحن لن ننال شرف صحبتك يا رئيسة الحانة ؟

رئيسة حانة البريد : أنا عندما أخلد إلى الراحة ، تعم الراحة كل شىء . (تخرج)

فرناندو : نحن إذن وحدنا .

لوتسيه : والمائدة بيننا على النحو الذى أستحسنته .

فرناندو : وأنت قد قررت أن تكونى فى معية البارونة ؟

لوتسيه : بل ينبغى على .

فرناندو : أظن أنك لن تتعبى فى العثور على رفيق تنعمين معه بتسلية لا تنالينها فى معية البارونة .

لوتسيه : لست أسعى إلى ذلك .

فرنانلو : ووجهك الصادق ماذا يقول ؟

لوتسيه : أنت يا سيدى ، على ما يبدو لى ، مثل كل الرجال ؟

فرنانلو : ماذا تعنين ؟

لوتسيه : أعنى أن الغرور يحرك لسانك بهذا الحديث . أنتم يا معشر الرجال تظنون أن الاستغناء عنكم محال . وأنا لا أعرف كيف يساوركم هذا الظن . فقد كبرت دون أن يكون للرجال شأن فى حياتى .

فرنانلو : أليس أبوك على قيد الحياة ؟

لوتسيه : لا أذكر لى أباً . لقد كنت صغيرة عندما هجرنا ورحل إلى أمريكا ، وعلمنا أن سفينته غرقت .

فرنانلو : ومع ذلك لا يبدو عليك أنك متأثرة لفقدانه .

لوتسيه : وكيف أستطيع غير ذلك ؟ — إنه لم يفعل إلا القليل حباً فى . وعلى الرغم من أننى أغفر له أنه هجرنا ورحل جرياً وراء حريته — فهل لدى الإنسان أعظم من حريته ؟ — فلست أحب أن أكون فى مكان أمى التى استبد بها كمد يوشك أن يفتك بها .

فرنانلو : وأنت بلا عون وبلا حماية ؟

لوتسيه : وما حاجتى إلى ذلك ؟ لقد صغرت ثروتنا يوماً بعد يوم ، وكبرت أنا يوماً بعد يوم . ولست أخشى أن أعجز عن القيام على معاش أمى .

فرنانلو : إننى معجب بشجاعتك .

لوتسيه : الشجاعة لا تأتى وحدها يا سيدى . إنما يكتسب الإنسان الثقة فى نفسه عندما يظل عرضة للخوف من الغرق ، ويرى أنه ينجو منه المرة بعد المرة .

- - - - -

فرناندو : ألا تستطيعين أن تنقلي شيئاً من هـذه الثقة في النفس إلى أمك الحبيبة ؟

لوتسيه : أنها هي الخاسرة الأسف . ولست أنا . أنا شاكرة لأبي أنه أتى بي إلى الدنيا — لأنني أحب الحياة ، وأعيش مبتهجة سعيدة . أما أمي فأمرها مختلف . لقد علقت كل الآمال عليه ، وضحت من أجله بزهرة شبابها ، ثم وجدت نفسها فجأة وحـيدة ، تركها وهجرها . وما أبشع أن يحس الإنسان بأنه تريك مهجور . أما أنا فلم أفقد شيئاً . ولست أستطيع الحديث بشيء عن هذا — يبدو عليك التفكير .

فرناندو : نعم ، يا حبيبتي ، من يعيش يخسر (ينهض) ولكنه يكسب أيضاً . عسى الله أن يحفظ عليك شجاعتك . (يمسك يدها) لقـد أثرت دهشتي . يا لها من سعادة يا بنيتي . — — لقد أكثرت التجوال في ربوع الدنيا ، وكانت آمالي وبهجتي وفرحتي — — ولكن مهما — —

لوتسيه : ماذا تعني ؟

فرناندو : أتمنى لك كل خير . إليك أحر وأفضل أماني بالسعادة . (يصافحها ويخرج)

لوتسيه : إنه إنسان عجيب . يبدو أنه طيب .

الفصل الثاني

(شتيللا • خادم)

شتيللا : اذهب ، اذهب بسرعة إليها ، وقل لها إننى أنتظرها .

الخادم : لقد وعدتنى بأن تأتى توا .

شتيللا : وأنك ترى أنها لم تأت بعد . إننى أحب البنت حبا عظيما . اذهب وقل لهـا إننى أرجو أن تأتى أمها معها .

(الخادم يخرج)

شتيللا : لا أكاد أستطيع الصبر حتى تأتى إلى . ما أعجب هذا الشوق إليها ، وتمنى حضورها .. كأنى أنتظر ثوباً جديداً ولا أصبر حتى يصل إلى . شتيللا . أنت طفلة . ولماذا لا أحب ؟ إننى أحتاج إلى الكثير ، الكثير حتى أملأ هـذا القلب . الكثير ؟ مسكينة أنت ياشتيللا . الكثير ؟ — عندما كان يحبك .. عندما كان يرقد ويسند رأسه على حجرك .. كانت نظرته تملأ عليك روحك . و — أى رب السماء ! إن مشيئتك سر لا نعرف السبيل إلى سبر أغواره . عندما كنت أرفع ، بعد قبلاته، عينى إليك بالدعاء .. عندما كنت أضع قلبى على قلبه فيتأجج لهيبه ، وأشرب بشفاه مرتجفة روحه العظيمة وأحتويها فى أعماقى ، ثم أرفع عينى إليك ، بدموع النعيم وأدعوك من كل قلبي : يارب اجعلنا من السعداء . . كنت تستجيب لى وتجعلنا من السعداء . — لم تكن تلك مشيئتك — (تستغرق فى التفكير ثم تنتقض فجأة وتضـع يديها على قلبها) لا يافرناندو . لم يكن كلامى لوماً .

(مدام زومر ولوتسيه تدخلان)

شتيلا : ها هى ذى عادت إلى . أيتها البنت الحبيبة ، لقد أصبحت الآن لى . — أشكرك يا سيدتى على الثقة التى تضعين بها هذا الكنز بين يدى . هـذه الرأس العنيدة الصغيرة . هـذه الروح الطيبة الطليقة . آه . لقد عرفت حقيقة نفسـك يا لوتسيه .

مدام زمر : فأنت إذن تحسين بما أتيتك به وأستودعتك إياه .

شتيلا : (بعد أن تطلعت برهة إلى مدام زومر) : معذرة.لقد علمت بقصتك ، وأنا أعرف أن من أمامى أناس من عائلة كريمة . إن حضورك إلى مفاجأة لى . ولكننى ما كدت أنظر إليك حتى أحسست بالثقة فيك والاحترام لك .

مدام زومر : سيدتى —

شتيلا : لا تعترضى . إن ما يحس به قلبى يروق لفمى أن يصرح به . — لقد سمعت أنك لست على ما يرام . كيف حالك ؟ اجلسى .

مدام زومر : صحيح ما سمعته يا سيدتى . ولكن هذه الرحلة فى أيام الربيع ، وهـذه الأشياء المنوعة ، وهذا الهواء النقى المبارك الذى غمرنى وأنعشنى — كل أولئك كان له أثره الطيب اللطيف على .. حتى إن ذكرى فصول من السعادة التى مضت وولت أثارت فى نفسى إحساساً لطيفاً فإذا بى أرى ضوء أيام الشباب والحب يشرق بألوانه الذهبية فى روحى من جديد .

شتيلا : آه ؟ الأيام ؟ أيام الحب الأولى . لا ، إنك لم ترتد إلى السماء أيها الزمان الذهبى . إنك لا تزال تحوط كل قلب فى تلك اللحظات التى تتفتح فيه زهرة الحب .

مدام زومر (تمسك يديها) : ياللعظمة ؟ يا لروعة الحب ؟

شتيللا : إن وجهك ليضيء ناصعاً كأوجه الملائكة ، وإن وجنتيك لتصطبغان بالحمرة .

مدام زومر : وقلبي آه ، ما باله ينفتح أمامك وتغمره الأحاسيس .

شتيللا : لقد عرفت الحب . آه . . أحمـــد الله . لقد وجدت مخلوقة تفهمني ، وتستطيع أن تواسيني ، ولا تنظر فى فتور إلى آلامى . هـــكذا نحن وليس الذنب فى ذلك ذنبنا . — لقد فعلت كل شيء ، وجربت كافة السبل . نعم . فماذا أفدت ؟ —كنت أريد شيئاً — شيئاً بعينه — لم أكن أريد الدنيا وما فيها — بل كنت أريده هو ، ولا شيء غيره . آه ؟ والحبيب فى كل مكان . وللحبيب كل شيء .

مدام زومر : إنك تحملين السماء فى فؤادك .

شتيللا : هذه هى صورته تعاودنى قبل أن ألتمسها . هكذا كان يقوم بين أولئك وهؤلاء ويبحث بعينيه عنى . — وهكذا كان ينزل إلى الساحة مندفعاً ، فيلقى بنفسه عند باب الحديقة بين ذراعى . وكنت أراه يخرج من هـــنا ، ومن هناك — آه — وكان يعود إلى — يعود إلى تلك التى تنتظره . — وإذا اتجهت بأفكارى إلى صخب الدنيا — وجدته هناك . كنت عندما أجلس فى اللوج أوقن ، سواء رأيته أو لم أره ، أنه — أياً كان مكمنه — يرقب ويحب كل حركة من حركاتى ، ونهوضى وقعودى . وكنت أحس أن اهتزاز ريشة قبعتى يشده أكثر من العيون البراقة حواليه ، وأن كل الأنغام ليست إلا لحن أغنية قلبه الخالدة : شتيللا ؟ شتيللا ؟كم أهواك .

لوتسيه : هل يمكن أن يتحاب اثنان إلى هـــذا الحـــد ؟

شتيللا : أنت تسألين يا صغيرتى ؟ وأنا لا أستطيع الإجابة . — ولكن

ما هذه الأشياء التى حدثتكم عنها. — — إنها توافه ... لكنها توافه هامة . — وما أنا فى الحقيقة إلا طفلة كبيرة .. وتلك حال أحس فيها بالراحة كل الراحة — ركأنى كالصغار الذين يختبئون وراء مرايلهم ويقولون : بخ ! حتى يبحث الآخــرون عنهم . لكم يملأ هذا قلبنا عندما نجد المحبوب لدينا بعد أن نكون قد شعرنا بالإهانة لتركه إيانا ! بأى مدد من القــوة الروحية ننفذ إلى حضرته . وكم تجيش فى صــدرنا صاعدة هابطة . وكيف يتفجر القلب فى النهاية عند نظرة من العين أو ضغطة باليد .

مدام زومر : يا لها من سعادة . إنك لا تزالين تعيشين فى مشاعر الإنسانية فى أبكر وأصفى صورها .

شتيللا : إن ألف سنة من الدموع والآلام لتعجز عن موازنة نعيم النظرات الأولى ، والرجفة ، واللعثمة ، والقرب والبعد ، ونسيان النفس — والقبلة الأولى العابرة الملتهبة ، والضمة الأولى بأنسامها الهــادئة — إنك يا سيدتى ، يا عزيزتى ، تغرقين . أين أنت .

مدام زومر : يا للرجال . الرجال .

شتيللا : إنهم يجعلوننا سعيدات ويحيلوننا إلى بائسات . كم يغمرون قلوبنا بإرهاصات النعيم . كم من الإحساسات والآمال الجــديدة المجهولة تجيش فى أرواحنا عندما تمس عاطفتهم الجــارفة كل عصب من أعصابنا . لكم ارتعد كل شىء فى كيــانى وانتفض عندما كان يريق كالسيل الغزيز على صــدرى آلام الدنيا بدموعه الجارفة . ولكم توسلت إليه أن يرعى نفسى ، ويرعانى — — فما كانت توسلاتى تجدى نفعاً . كان يبث فى كيانى ، إلى أعمق أعماق نخاع عظامى ألسنة النار التى

تهرسه هرساً . ركان أن تحولت البنت كلها من قمة رأسها إلى أخمص قدمها إلى قلب ، إلى وجـدان . وأين المكان الذى يتنفس فيه هـذا الكائن البشرى ويجد من دونه طعاماً ؟

مدام زومر : إننا نصـدق الرجال . إنهم فى لحظات الغرام يخدعون أنفسهم ، فما الذى يردهم عن خداعنا ؟

شتيللا : سيدتى . لقد خطرت ببالى فكرة — هيا بنا نحقق لأنفسنا ما كان ينبغى أن يحققه الرجال لنا . هيا بنا نأتلف فى جماعة تبقى معا . هات يدك لنتعاهد على ذلك . من هذه اللحـظة لن أتركك .

لوتسيه : هذا مالا يمكن أن يكون .

شتيللا : لماذا يا لوتسيه ؟

مدام زومر : ابنتى تشعر بأن —

شتيللا : بأن هـذا الاقتراح لا خير فيه . ألا تشعرين بالخير الذى تفعلينه بى عندما تبقين عندى ؟ لا ينبغى لى أن أبقى وحدى . لقد فعلت كل شىء يا حبيبتى حتى أتغلب على الوحدة : اقتنيت الدواجن والغزلان والكلاب ، وعكفت على تربيـة صغار البنات وتعليمهن شغل الإبرة ... لا لشىء إلا لأرى ما يعيش وينمو خارجاً عنى . فإذا حظيت بالسعادة ، وبدا لى كأنما رفع إله كريم فى صباح ربيعى صاف الآلام عن روحى ، وأشرقت الشمس الحبيبة على أشجارى المزدهرة وأحسست بالنشاط والبهجة وأنا أقبل على أعمال اليوم .. شعرت بالراحة ، وأخذت أتحرك حيناً هنا وحيناً هناك ، وأعمل وأرتب وأوجه العاملين عندى .. فإذا خلوت إلى نفسى رفعت صوتى عالياً بالشكر إلى السماء على الساعات السعيدة .

مدام زومر : آه يا سيدتى . إننى أحس بهذا كله . فالعمل والبر نعمة من نعم السماء وبديل تلتمسه القلوب العاشقة .

شتيللا : تقولين بديلا ؟ وما هو بالبديل ، إنما هو تعويض ، فما هو مثيل الشيء الذى ضاع ، إنما هو تعويض يحل محله . يا للحب الضائع . أين منه البديل ؟ — إننى عندما أهوى أحياناً من فكرة إلى فكرة ، وأسوق أمام روحى أحلام الماضى اللطيفة ، وأهفو إلى مستقبل مفعم بالأمل ، وأسير هكذا فى ضوء القمر الخافت بحديقتى ، جيئة وذهاباً ، أفاجأ بهذا الإحساس يتملكنى ، ويستبد بى ، فأصبح وحيدة أمد ذراعى بلا جدوى فى كل اتجاه . وألهج بسحر الحب عنيفاً فياضاً حتى أظن أن على أن أقبض على القمر وأجذبه من أعاليه — وحيدة لا يرتد إلى صوت من الخميلة ، وحيدة أرى النجوم تطل على من أفلاكها فاترة لطيفة تشهد عذابى . وإذا بى أجد قبر ابنتى عند أقدامى .

مدام زومر : هل كان لك ابنة ؟

شتيللا : نعم يا عزيزتى . رباه .لقد قدمت إلى يارب هذا النعيم لا لشيء إلا لأذوق طعمه حتى إذا سعدت به دفعت إلى كأسا مريرة أتجرعها طوال حياتى . — إننى عندما ألمح فى أثناء نزهتى طفلا من أطفال الفلاحين يجرى نحوى حافى القدمين برئ العينين ، يرسل إلى قبلة يطبعها على يده ، أحس خلجة تخترق كيانى وتنفذ إلى عظامى ونخاعى ، وأقول فى نفسى ، لو بقيت ابنتى مينا على قيد الحياة ، لكانت مثله . وإذا بى أحمل الطفل فى خوف وحب إلى أعلا ، وأقبله مائة قبلة ، وإذا قلبى يتمزق ، ودموعى تنهمر ، وإذا بى ألوذ بالفرار .

لوتسيه : ولكن ألمك يقل .

شتشيلا (تبتسم وتربت على كتفها) : لقد أصبحت لا أقدر على شيء إلا الإحساس . ومن عجب أن اللحظات الفظيعة لم تقتلنى . —

ذات يوم تمددت أمامى هامدة . زهرة قطفت قبل أن يتفتح برعمها . — ووقفت — متحجرة فى أعمق أعماق . بلا ألم . وبلا شعور . وتناولت المربية الطفلة وضمتها إلى صدرها وصاحت فجأة : إنها حية — فارتميت أنا من فورى إلى صدرها وانعطفت على الصغيرة بسيل من الدموع — وسجدت عند قدميها — آه — ولكنها خدعتنى . كانت الطفلة جثة هامدة خامدة . ووقفت بجوارها فريسة يأس فظيع فتاك .

(تلقى بنفسها فى كرسى وثير)

مدام زومر : جنبى فكرك هـــذه المشاهد الحزينة .

شتيللا : لا . إننى أحس بالارتياح ، بالارتياح الشديد ، لأن قلبى ينفرج فأستطيع أن أفرغ بالكلام كل ما يثقل على . نعم ، إننى عندما أبدأ فى الحديث عنه ، عن الرجل الذى كان كل شىء بالنسبة إلى ، عنه هو ... لابد أن تروا صورته — صورته — إننى دائماً أتخيل أن شكل الإنسان هو أنسب نص يوافق ما يقوله قائل عنه أو يحس به حياله .

لوتسيه : إننى مشوقة لرؤيتها .

شتيللا (تفتح حجرتها الخاصة وتقتادهما إليها) : ها هى ذى . هنا . يا حبيبتيا .

مدام زومر : رباه .

شتيللا : هكذا . هكذا . وليست الصورة جزءاً من ألف مما كان فى الحقيقة . هـــذه الجبهة ، هاتان العينان السوداوان ، هذه الخصائل الداكنة ، هذا التعبير الجاد.. ولكن الرسام لم يستطع أن يعبر عن الحب الحنان عندما ما تجيش الأحاسيس فى وجدانه وتنساب انسياباً . آه . أنت وحـــدك يا قلبى تحس بذلك .

لوقسيه : سيدتى ، ياللغرابة .

شتيللا : إنه رجل فذ .

لوتسيه : لابد أن أقول لك شيئاً غريباً ، لقد تناولت الطعام اليوم في حانة البريد مع ضابط يشبه هـذا السيد — بل إنه هو هو . وأراهن على ذلك بحياتى .

شتيللا : اليوم ؟ إنك تخطئين . نعم . إنك تخطئين .

لوتسيه : بل اليوم . اليوم . وإن كان الذى رأيته أكبر سناً ، وأكثر سمرة من لفح الشمس . إنه هو . هو .

شتيللا (تذهب إلى الجرس) : إن قلبي ليتفتت ؟ لأذهبن إلى هناك ؟

لوتسيه : لا يليق بك أن تفعلى هـذا .

شتيللا : تقـولين لا يليق ؟ آه يا قلبي .

(يدخل خادم)

شتيللا : اذهب إلى حانة البريد يا ڤيلهلم . حالا . هناك ضابط ، لعله هو — بل إنه هو — يا لوتسيه . قولى له أنت — قل له أن يأتى .

لوتسيه : هل كان يعرف البارون ؟

الخـادم : إنى أعرفه كما أعرف نفسى .

لوتسيه : اذهب إلى حانة البريد ، هناك ضابط أرى أنه يشبه البارون على نحـو خارق للمألوف ، فانظر هل أخطأت أم أصبت . وأنا أقسم على أنه هو .

شتيللا : قل له أن يأتى ، يأتى بسرعة . بسرعة . آه . لو صح هذا . لو عاد إلى فى هـذه — لا ، أنت تخطئين . هذا محـال . اتركانى وحدى ياحبيبتى .

(تدخل حجرتها الخاصة وتغلق الباب من ورائها)

لوتسية : ماذا دهاك يا أماه . لماذا شحب وجهك ؟

مدام زومر : هذا آخر أيام حياتى . إن قلبى لا يحتمل كل هذه الأحداث دفعة واحدة . كل هـــذه الأحداث .

لوتسيه : رباه .

مدام زومر : الزوج — الصورة — الرجل المنتظر — الحبيب . إنه زوجى أنا. إنه أبوك .

لوتسيه : أماه . يا أحسن الأمهات .

مدام زومر : إنه هنا . — وإنه قادم إليها بعد دقائق . لترتمى بين ذراعيها . أما نحن ؟ أما نحن ، يا لوتسيه ، فلا بد من أن ننصرف .

لوتسيه : إلى أين .

مدام زومر : إلى أى مكان .

لوتسيه : إذهبى أنت إلى الحديقة. أما أنا فأريد أن أذهب إلى حانة البريد. فإذا لم تكن عربته قد رحلت، أمكننا — فى هدوء وبغير وداع — بينما هى فى نشوة السعادة — أن — —

مدام زومر : أن نعانقه ونسعد بنعيم اللقاء .. لقائه .. ولست أظن إلا أننى فى اللحظة التى سألقاه فيها ، سأكون إلى الأبد .. إلى الأبد قد ..

(فرناندو والخادم يأتيان)

الخـــادم : من هنا . ألم تعد تعرف الطريق إلى حجرتك الخاصة ؟ إنها لا تمالك نفسها . آه . لقد عدت إليها .

(فرناندو يسير دون أن يراهما)

مدام زومر : إنه هو . إنه هو . لقد انتهيت .

الفصل الثالث

(شتيلا تدخل مع فرناندو ، وقد بلغ بها الابتهاج كل مبلغ)

شتيللا (تنظر إلى الجدران) : لقد عاد . ألا ترونه ؟ لقد عاد . (تتقدم إلى لوحة تمثل ڤينوس) هل ترينه أيتها الربة ؟ لقد عاد . لكم ذرعت المكان جيئة وذهاباً أمامك ، تائهة ، وشكوت وبكيت . وها هو ذا قد عاد . إنني لا أصدق حواسي . أيتها الربة . لقد رأيتك كثيراً ، عندما كان غائباً — وها أنت ذي هنا .. أنت هنا . وهو أيضاً هنا . — حبيبي . حبيبي . لقد طالت غيبتك . ولكنك عدت . (تعانقه) أنت هنا. لا أريد أن أشعر بشيء .. ولا أريد أن أسمع شيئاً .. ولا أريد أن أعرف شيئاً .. سوى أنك هنا .

فرناندو : شتيللا ؟ حبيبتي (يعانقها) يارب السماء . لقد أعدت إلى دموعي .

شتيللا : أنت فريد ، لا مثيل لك .

فرناندو : شتيللا . دعيني أشرب ، مرة أخرى ، أنفاسك الحبيبة ، أنفاسك الحبيبة التي كانت السماء كلها تبدو لي ، إذا قيست إليها ، فارغة خامدة .

شتيللا : حبيبي .

فرناندو : بثي في هذا الصدر الذي أجدب وباد ، تحطم حباً جديداً ، ونعيما بالحياة ، من فيض قلبك الجياش . — (يقبلها قبلة طويلة) .

شتيللا : يا أعز الناس عندي .

فرناندو : صحة جديدة . انتعاش جديد . إن كل شيء يهيم ، حيث تتنفسين ، فى حياة فتية راضية. ولسوف يحكم الحب والإخلاص الدائم قبضته عليك ، أيها الهائم الجزال المحدب ، فتبقى هنا .

شتيللا : أيها الحالم الخيالى .

فرناندو : إنك لا تشعرين بما يعنيه ندى السماء بالنسبة للظمآن الذى يعود من دنيا الصحراء المجدبة إلى صدرك الحنون .

شتيللا : ونعيم المسكينة ؟ يا فرناندو . عندما تضم إلى صدرها مرة أخرى الحبيب الوحيد الذى تاه منها وضاع ؟

فرناندو (عند قدميها) : حبيبتى شتيللا .

شتيللا : قم يا أعز حبيب . قم . أنا لا أحتمل أن أراك راكعاً .

فرناندو : دعينى . إننى دائم الركوع أمامك ، وإن قلبى لينحنى لك أنت أيتها الصبابة الأبدية والطيبة السرمدية .

شتيللا : لقد عدت إلى . أنا لا أفهم ذاتى ، ولا أعرف نفسى . ولكن ما فائدة ذلك فى الحقيقة ؟

فرناندو : إننى أحس الآن بما كنت أحس به فى اللحظات الأولى لنعمينا. فأنا أطوقك بذراعى . وأمتص يقين حبك من شفتيك ، وأترنح ، وأسأل نفسى ، وقد استبدت بى الدهشة : هل أنا فى صحوى أو فى منامى .

شتيللا : هأناذى أشعر يا فرناندو بأنك لم تزد تعقلا .

فرناندو : وأنا أشكر الله على ذلك . — إن لحظات النعيم هذه بين ذراعيك تعيدنى إلى الخير والتقوى والصلاح .. فأستطيع الصلاة ، ياشتيللا ، لأننى سعيد .

شتيللا : عسى الله أن يغفر لك أنك إنسان شرير إلى هذه الدرجة ،

وإنسان خير إلى هـذا المدى — الله يغفر لك — الله الذى خلقك على هـذه الهيئة — كثير التقلب .. عظيم الإخلاص . إنى عندما ما أسمع نبرة صوتك أقـول لنفسى مرة أخرى : هذا هو فرناندو الذى لا يحب فى الدنيا سواى .

فرناندو : وأنا عندما ما أرتاد أعماق عينيك الزرقاوين الحلوتين ، وأتوه فيهما باحثاً فاحصاً ، أقول فى نفسى : إنهما لم تضما طوال غيابى سوى صورة واحدة هى صورتى أنا .

شتيلا : ما أخطأت .

فرناندو : لا ؟

شتيلا : سأعترف لك . ألم أعترف لك فى الأيام الأولى لحبى العارم بكل الغراميات الصغيرة التى مست قلبى ؟ وألم أصبح أحب إليك عن ذى قبل ؟

فرناندو : أنت ملاك .

شتيلا : لماذا تحدق فى هكذا ؟ ألم تتقـدم بى السن ؟ أليست هذه هى الحقيقة ؟ ألم يصب البؤس زهرة وجنتى بالزبول ؟ أليست هذه هى الحقيقة ؟

فرناندو : يا وردتى . يا زهرتى الحلوة . لماذا تهزين رأسك ؟

شتيلا : ما بالى أحبك إلى هـذا الحد . — كيف لا أحاسبك على الحزن الذى سببته لى .

فرناندو : (يمسح على خصائل شعرها) : على الرغم من الشعر الأشيب الذى سرى فى رأسك ؟ — من حسن حظك أن شعرك أصلا أشقر ناصع لا يبين الشيب فيه — وأغلب الظن أنه كما هو لم يسقط منه شىء .

(يسحب المشط من شعرها فيتفرق ويتهدل)

شتيللا : تفعل ذلك عمداً .

فرناندو : (يلف ذراعيه فى شعرها) : هكذا يعود رينالدو (١) إلى الأغلال القديمة .

(يدخل خادم)

الخادم : سيدتى .

شتيللا : ماذا بك ؟ إن وجهك يحمل تعبيراً مكتئباً فاتراً ، وأنت تعلم أن تعبيرات الوجه إذا اكفهرت تعنى الموت بالنسبة إلى عندما أكون مسرورة .

الخادم : نعم . ولكن ياسيدتى — السيدتان الغريبتان تريدان الرحيل .

شتيللا : الرحيل ؟ آه .

الخادم : هذه هى الحقيقة . لقد رأيت الابنة تذهب إلى حانة البريد . ثم تعود إلى أمها ، فاستعلمت عن الخبر هناك : فعرفت أنها طلبت عربة خاصة لأن العربة العامة قد رحلت . وتحدثت إليهما ، فطلبت إلى الأم ، والدموع تنهمر من مآقيها ، أن أحضر إليها ملابسها سراً ، وأن أحمل إلى البارونة ألف تحية وبركة ، وقالت لى إنهما لا يستطيعان البقاء .

فرناندو : السيدة التى وصلت اليوم مع ابنتها ؟

شتيللا : كنت عازمة على تعيين البنت فى خدمتى ،وعلى استبقاء الأم عندى كذلك . فما بالهما تحدثان بى الآن هذا الاضطراب يافرناندو .

فرناندو : ماذا بهما يا ترى ؟

بطل ملحمة « أورشليم المحررة » لتاسو والاشارة الى الموضع الذى سوت فيه الساحرة أرميدا شعرها أمام رينالدو .

(المترجم)

شتيللا : الله أعلم . لا أستطيع ، ولا أحب أن أعرف شيئاً . ولكنى أعرف أنني لا أحب أن أفقـــدهما . لقد عدت إلى يا فرنانلو ، وأصبحت لى . وأنا فى هـــذه اللحظات أكاد أسلم الروح . فتكلم معهما يا فرنانلو . الآن . الآن . استدع الأم يا هاينريش وحتى تكون على حريتها ، سأذهب أنا ، يا فرنانلو ، إلى الخميلة . فإذا فرغت اتبعنى إلى هنا . اتبعنى إلى هناك ... لك اليوم يا بلابل الخميلة أن تستقبليه .

فرنانلو : يا أحب الحب إلى قلبي .

شتيللا (تتعلق به) : ستتبعنى حالا ؟

فرنانلو : حالا . حالا .

(شتيللا تخرج)

فرنانلو (وحده) : يا ملاك السماء . كيف يبث وجودها الصفاء و الانطلاق فى كل شىء .

— وأنت يا فرنانلو ، هل تعرف نفسك ؟ — لقد انصرف عن صدرك كل ما كان يطبق عليه : كل هم ، كل ذكرى مخيفة . كل ما كان ، وكل ما سوف يكون . فهل تراكم تعـــودون مرة أخرى ؟ ولكنكم تتبددون وتتلاشون عندما أمسك يدك يا شتيللا وأتطلع إليك — وإذا بنفسى تخلو من كل صورة سواك .

(الوكيل يدخل)

الوكيل (يقبل يديه) : هل عدت ؟

فرنانلو (يشد يده) : هأنذا .

الوكيل : دعنى راكعاً ياسيدى . دعنى . دعنى .

فرنانلو : كيف حالك ؟ هل أنت سعيد ؟

الوكيل : زوجتي بخير ، ولي طفلان — وأنت قد عدت ياسيدي .

فرناندو : كيف دبرتم أمور الأملاك ؟

الوكيل : على خير ما يرام ، حتى إنني مستعد لتقديم الحسابات على الفور . — ولسوف تدهش للإصلاحات التي أدخلناها على الضيعة . — هل تسمح لي بأن أسألك عن أخبارك ؟

فرناندو : هل أسكت ؟ — أم هل أقص عليك الأخبار كلها ؟ ما أظنك إلا جديراً بها بما كنت شريكاً لي في حماقاتي القديمة .

الوكيل : الحمــد لله أنك لست شيخاً من شيوخ قبائل الغجر ، فإنك لو كنت شيخاً من شيوخ قبائل الغجر وأمرتني بكلمة واحدة أن أحرق رأسي ، لفعلت .

فرناندو : إليك أخباري .

الوكيل : حدثني عن زوجتك . وابنتك .

فرناندو : لم أعثر عليها . والحق أنني لم أجرؤ على دخول المدينة ، ولكني عرفت من مصادر وثيقة أنها وضعت ثقتها في واحد من التجار ، كان يتظاهر فيما مضى بأنه صديق وكشفت الأيام زيفه ، فأعطته الأموال التي تركتها لهــا ووعدها بأن يعطيها أرباحاً كبيرة ، ونصب لهــا فخ الخديعة فوقعت فيــه . وفقدت كل شيء . وتظاهرت أمام الناس بأنها قررت أن تنتقل إلى الريف ورحلت من الناحية كلها ، ودرست آثارها ، والأرجح أنها وابنتها تقومان بعمل يدوي تعيشان منه عيشة بائسة . وأنت تعرف أنها كانت تتصف من الخلق والعزم بما يمكنها من القيام بمثل هــذا .

الوكيل : وهأنتذا قــد عدت إلى هــنا . ونحن نغفر لك غيابك الطويل عنا .

فرناندو : لقد ضربت فى الأرض بعيداً وأطلت الترحال .

الوكيل : لو لم أكن أنعم بالسعادة فى بيتى مع زوجتى وطفلى ، لحسدت على الطريق التى سلكتها مرة أخرى بين ربوع الدنيا الواسعة . فهل تراك ستبقى بيننا ؟

فرناندو : إنشاء الله .

الوكيل : فما الترحال فى نهاية المطاف بمختلف عن البقاء ، وما هو بأفضل منه .

فرناندو : لمن يقـــدر على نسيان الزمان الذى مضى .

الوكيل : الزمان الذى مضى ، والذى كان يتيح لنا شيئاً من البهجة ويعرضنا لألوان من المحن . وما زلت أذكر تمام الذكرى وأدقها كيف وجـــدنا تسيتسيليه فى غاية الود واللطف ، ففرضنا أنفسنا عليها ، ولم نعرف لنا سبيلا إلى التخلص من حرية الشباب أسرع من ذلك السبيل .

فرناندو : ولكنه كان زماناً جميلا سعيداً .

الوكيل : وأذكر كيف ولدت لنا بنتاً باشة نشيطة ، وكيف فقدت إذ ذاك شيئاً من مرحها وفتنتها .

فرناندو : لا تثقل على بهذه السيرة .

الوكيل : وكيف أخذنا نبحث هنا وهناك ، وفى هـــذه الناحية وتلك ، حتى التقينا أخـــيراً بهذا الملاك ، فلم يعد هـــناك حديث عن الحل والارتحال ، بل تحتم علينا أن نختار بين تعاسة هذه أو تعاسة تلك . وكان أن انتهينا إلى حل سهل بالنسبة إلينا ، عندما ما سنحت فرصة لبيع الضياع ، فبعناها بخسارة ، واختطفنا الملاك ، البنت الغريرة الجميلة التى كانت تجهل نفسها وتجهل الدنيا ، فنفيناها إلى هنا .

فرنانلو : من الواضح أنك لا زلت كما كنت قديماً تغدق النصح وتكثر الثرثرة .

الوكيل : أما سنحت لى الفرصة للتعلم ؟ أما كنت الحافظ لسر ضميرك ؟ ثم عهدتك تتوق إلى الرحيل من هنا ، إما عن رغبة خالصة فى لقاء زوجتك وابنتك ، أو مندفعاً بقلق دفين ، وساعدتك فى أكثر من ناحية صاغراً .

فرنانلو : كفى هـذا الآن .

الوكيل : ابق بيننا . ابق هنا . وسيكون كل شىء على ما يرام .
(خادم يدخل)

الخادم : مدام زومر .

فرنانلو : دعها تدخل .

فرنانلو (وحده) : هذه المرأة تسبب لى الاكتئاب . هـكذا حال الدنيا : لا ينال الإنسان فى الدنيا شيئاً كاملا كل الكمال ، صافياً كل الصفاء . وهـذه المرأة — شجاعة ابنتها حطمتنى . فأى ألم هـذا الذى يمكن أن يكون قد ألم بها ؟
(مدام زومر تدخل)

فرنانلو (لنفسه) : رباه . هـذا هو شبحها يذكرنى بجريمتى . آه لك أيها القلب . آه لك يا قلبى . إذا كانت لك القـدرة على الإحساس والتصرف على هـذا النحو ، فلماذا لا تكون لديك القدرة على العفو عما سلف . — هـذا هو شبح على هيئة زوجتى . — ما بالى لا أرى . (بصوت عال) : سيدتى .

مدام زومر : بم يأمر سيدى ؟

فرنانلو : لكم تمنيت أن تتكرمى بالبقاء مع حبيبتى شتيللا ومعى . اجلسى .

مدام زومر : إن وجود التعيس مع السعيد ثقل عليه . ووجود السعيد مع التعيس ثقل أكبر .

فرناندو : لا أفهم مقصدك . أيمكن أن تكونى قد أخطأت الحكم على شتيللا ؟ على شتيللا التى هى حب كلها ، ربانية كلها .

مدام زومر : سيدى . لقد كنت أتمنى أن أرحل سراً . فدعنى ، لابد من أن أرحل . ولك أن تصدقنى عندما أقول إن لدى أسبابى ولكننى أرجوك أن تتركنى وشأنى .

فرناندو (لنفسه) : يا لهذا الصوت . يا لهذا الشكل . (بصوت عال) يا سيدتى . (ينظر خلفه) رباه ، إنها زوجتى . (بصوت عال) معذرة . (يخرج بسرعة) .

مدام زومر (وحدها) : لقد عرفنى . أشكرك ياربى على القوة التى أفأت بها على قلبى فى هذه اللحظات . هل أنا هذه المرأة ؟ أنا المحطمة ، الممزقة ، أتمالك نفسى فى الساعة الحاسمة ، وأظهر كل هذه الشجاعة ؟ يارب الخير ، يا صاحب التدبير إلى الأبد ، إنك لا تنزع من قلوبنا شيئاً إلا وتحفظه له لترده إليه فى ساعة تبلغ حاجته فيها إليه مداها .
(فرناندو يعود)

فرناندو (لنفسه) : هل تراها عرفتنى ؟ — (بصوت عال) أرجوك ياسيدتى ، أتوسل إليه ، افتحى لى قلبك .

مدام زومر : سوف يتطلب هذا منى أن أحكى لك ما أجراه القدر على ، وكيف تتلقى ، يا سيدى ، الشكوى والحزن فى يوم أتيحت لك فيه مباهج الحياة كلها مرة أخرى ، وأعطيت نعم الحياة جميعها مع أكرم النساء . لا يا سيدى . دعنى أنصرف .

فرناندو : أرجوك .

مدام زومر : كم كنت أود أن أوفر ذلك عليك وعلى نفسى . إن ذكرى الأيام السعيدة الأولى فى حياتى تحدث بى آلاماً مهلكة .

فرنانلو : فأنت لم تكونى تعيسة منذ البداية ؟

مدام زومر : لو كنت تعيسة منذ البداية لما بلغت بى التعاسة الآن هذا المدى . (بعد برهة .. وقد خف ما بصدرها من انفعال) لقد كانت أيام شبابى سهلة وسعيدة . ولست أعرف ما كان يشد الرجال إلى شد الأغلال ، فلقد تقرب منى منهم كثيراً ، ودوا لو نالوا رضائى . أما أنا فقــد أحسست نحو القليل منهم بالصداقة والميل ، ولم أجد بينهم واحداً آمنت بأننى أستطيع أن أعيش معه طوال حياتى . وهكذا انقضت الأيام السعيدة فى صنوف من اللهو تصطبغ بلون الورد . يصــافح اليــوم المنصرم اليوم اللاحق بيد الود والصداقة . إلا أن شيئاً كان ينقصنى . . كنت إذا تعمقت الحياة وسبرت ببصرى أغوارها ، وتمثلت كل المباهج والأحزان التى تنتظر الإنسان ، تمنيت أن يكون لى زوج تصحبنى يده فى جنبات الدنيا ، ويكون لى — لقــاء الحب الذى يخصه به قلبى الشاب — صــديقى فى شيخوختى ، ودرعى وبديل والدى اللذين هجرتهما من أجله .

فرنانلو : فماذا حدث ؟

مدام زومر : آه . ورأيت الرجل . رأيته . رأيت ذلك الذى علقت عليه كل آمالى منذ الأيام الأولى لتعارفنا . ولاح لى اندفاع روحه مرتبطاً بإخلاص قلبه ، فانفتح له قلبى ، ومنحته صداقتى . وسرعان ما منحته حبى . آه . يارب السماء . كيف كان يبدو عليه ، عندما يسند رأسه مطمئنة إلى صدرى ، أنه يشكرك على الموضع الذى هيأته له بين ذراعى . وكيف كان يهرب

إلى من خضم الأعمال والتلاهى . وكم كنت أدعم نفسى بالارتكان إلى صدره فى الساعات الكئيبة .

فرنانلو : فما الذى عكر صفو هـــذه العلاقة الحبيبة ؟

مدام زومر : لا دوام لشىء فى الدنيا . آه . لقد كان يحبنى حقاً . وإن ثقتى من حبه لى لتساوى ثقتى من حبى له ، ولقد مر علينا وقت لم يكن فيه يعرف شيئاً سوى أن يرانى سعيدة ، وأن يجعلنى سعيدة . وكان ذلك الوقت ، آه ، أرق وقت فى الحياة : كانت السنوات الأولى من هذه العلاقة تتعرض للمحات طفيفة من التبرم والملل ، كانت تؤرقنا ، ولكنها لم تكن تصل إلى مستوى المحنة الحقيقية . آه . ثم اصطحبنى إلى طريق الآلام ليتركنى وحـــدى فى صحراء جرداء رهيبة .

فرنانلو (تزداد حيرته) : كيف ذلك ؟ وما الذى جرى لأفكاره وقلبه .

مدام زومر : وهل لنا القدرة على معرفة ما يجيش فى صدور الرجال . — لم أرقط أن كل شىء تحول فى قلبه شيئاً فشيئاً إلى — بأى عبارة أعبر عن هـــذا ؟ — تحول إلى البلادة والفتور .. وهـــذا كلام لا أسمح بالتحدث به إلى نفسى . لقد كان يحبنى دائماً . دائماً . ولكنه كان بحاجه إلى أكثر من حبى . وكان على أن أقتسم ما كان يصبو إليـــه ، ربما مع خليلة اتخذها . وأنا لم أخف عليه لومى وتقريعى . وأخيراً .

فرنانلو : واستطاع أن ... ؟

مدام زومر : وأخيراً هجرنى . وليس هناك اسم يمكن أن يعبر عن كل ما يعتمل فى نفسى من أثر هذه المحنة . لقد تبددت آمالى كلها فى لحظة . فى اللحظة التى ظننت فيها أننى سأجنى ثمار تضحيتى بزهرة شبابى ، تركنى .. هجرنى . وتقوضت

عمد قلبي .. وما هو إلا قلب إنسان بشر .. الحب ، الثقة ، الشرف ، الحسب ، الثروة النامية ، الشوق إلى أبناء كثيرين ينالون من الرعاية أطيبها ومن التربية أحسنها ... والصغيرة التي ظلت على قيد الحياة ضماناً سعيداً لحبنا .. وتبعت الأحزان الدفينة الآلام العاتية . وهوى قلبي بعد البكاء المرير واليأس العنيف إلى الخور والضعف . ولم أتنبه لعوادي النحس التي انهالت على أموال امرأة مسكينة مهجورة ، ولم أشعر بها حتى انتهيت أخيراً .

فرناندو : والمذنب الآثم .

مدام زومر (تكتم أحزانها) : ليس هو المذنب الآثم . إنني آسى لكل رجل يتعلق فؤاده بامرأة .

فرناندو : سيدتي .

مدام زومر (تتهكم في رفق وتخفي تأثرها) : لا . بكل تأكيد . إنني أتصوره كالأسير . ولقد ألف الناس استخدام هذه العبارة . إن الرجل ينجرف من عالمه إلى عالمنا ، معشر النساء ، عالمنا الذي لا يشترك مع عالمه في شيء . ولا يزال الرجل يخدع نفسه حتى تنفتح عيناه ، والويل لنا عندما تنفتح عيناه . أما أنا فلم أستطع أن أقوم منه في النهاية إلا مقام ربة البيت المستنيرة التي تتعلق به تعلقاً تحرص عليه أوثق الحرص ، وتسعى إلى رضائه ، وتعنى به ، وتكرس أيامها كلها لصالح بيتها وابنتها . واضطررت بطبيعة الحال إلى الاهتمام بكثير من الطفائف والتوافه حتى فرغ رأسي وقلبي فراغاً ، عجزت بسببه في أحيان كثيرة عن لعب دور امرأة المجتمعات المتحدثة اللبقة . وكانت النتيجة الحتمية أنه ، وهو صاحب الفكر المتقد ، وجد صحبتي شيئاً باهتاً لا طعم له ولا لون . وهو بريء لا ذنب له .

فرناندو (يركع إلى قدميها) : أنا .

مدام زومر (تطوقه بذراعيها وقد انهمرت الدموع من مآقيها) : حبيبي .

فرناندو : تسيتسيليه . — زوجتي .

تسيتسيليه (تنصرف عنه) : لا يا ... هأنتذا تتخلى عني يا قلبي . (تعود فتطوق فرناندو بذراعيها) فرناندو .. أيا ماكنت .. دع دموع امرأة بائسة تنهمر على صدرك .. احفظ لى هـــذه اللحظة ثم اتركني إلى الأبد — لست بمطالبة أن تعترف بي زوجة لك .. ولكن لا تنبذني .

فرناندو : رباه . إن دموعك يا تسيتسيليه تبلل خدى — وارتعاد قلبك يصيب قلبي — رحماك . رحماك .

تسيتسيليه : لا أريد شيئاً يا فرناندو . — لا أريد سوى هذه اللحظة . تكرم على قلبي بهذه الإفاضة ، ولسوف يرتاح وينطلق ويقوى ولك بعد ذلك أن تتخلص مني ..

فرناندو : بل لتتمزق حياتي إرباً قبل أن أتركك .

تسيتسيليه : سوف أراك مرة أخرى ، ولكن ليس فى هـــذا العالم ، إنك فى عالم آخر تنتمى إليــه ولن أختطفك منه ... افتح لى ، افتح لى جنتك .. دعني ألقى نظرة إلى ذلك البعد البهيج .. إلى المقام الأبدى .. هذا وحده ، وحده ، عزائى فى هـــذه اللحظة التى يحف بها الخوف .

فرناندو (يمسك يدها ويتطلع إليها ويعانقها) : لن يفرقنا شيء فى الدنيـــا . لن يباعد بيننا شيء بعد الآن . لقد وجدتك مرة أخرى .

تسيتسيليه : كيف تجد من لم تبحث عنه .

فرناندو : لا تقولى هذا . لا . لقـــد بحثت عنك أيتها الحبيبة بعد أن هجرتك . وظللت لا أجد ، حتى بين ذراعى هذا الملاك هنا ، راحة أو نعيما . كان كل شيء يذكرنى بك . وبابنتك .. بحبيبتى

لوتسيه . أيتها السماء الرحيمة . ما أعظم هـــذه السعادة . — هـــل هـــذه البنت الحبيبة ابنتى ؟ .. لقـــد لقد بحثت عنك فى كل مكان . ظللت أبحث عنك فى كل مكان ثلاثة أعوام تنقلت خلالها فى كل الأنحاء . فلما وصلت إلى الموضع الذى كنا نقيم فيـــه ، وجدت مسكننا قد تغير ، وانتقل إلى أيد غريبة ، وسمعت قصة حزينة عن ضياع ثروتك ورحيلك . وقطع خبر رحيلك نياط قلبى .. ولم أستطع العثور لك على أثر .. وسئمت نفسى وحياتى . فلبست بدلى فى هـــذه الثياب ، ووضعت ذراعى فى خدمة الآخرين ، وأعنت على نصرة الحرية المحتضرة بين أهل كورسيكا الكرام . (*) وها أنتذى تريننى هنا بعد ضلال طويل عجيب ، أستند إلى صدرك يا زوجتى ، يا أحسن وأخلص البشر .

(لوتسيه تدخل)

فرناندو : ابنتى .

لوتسيه : يا أعز وأحسن أب فى الوجود . إذا كنت قد أصبحت أبى مرة أخرى .

فرناندو : بل إلى الأبد .

تسيتسيليه : وماذا عن شتيللا ؟

فرناندو : الخبر فى السرعة . يا لها من امرأة تعيسة . — لماذا لم نتعارف هذا الصباح يالوتسيه ؟ كان قلبى يخفق . . وأنت تعلمين كم كنت متأثراً عندما تركتك . لماذا ؟ لماذا ؟ .. لو كنا قد تعارفنا صباح اليوم ، لوفرنا على أنفسنا كل ما نحن فيـــه الآن . ولوفرنا على شتيللا هذه الآلام . شتيللا ... ولكن

(*) حرب فرنسا ضد أهالى كورسيكا عام ١٧٦٩ . (المترجم)

هيا بنا نرحل . سأقول لهـا إنكما صممتما على الرحيل ، وإنكما لم تريدا الإثقال عليها بالوداع . هيا لوتسيه . إذهبي إلى حانة البريد ومرى بهم أن يعدوا عربة لثلاثة أشخاص . وسيقوم خادمى بحزم أمتعتى مع أمتعتكما . وابقى أنت هنـا ، يا زوجتى العظيمة الحبيبة . وأنت يا بنيتى ، عودى إلى هنا ، بعد الفراغ من التدابير كلها ، والزما بهو الحديقة وانتظرا حتى ألقاكما . وسأذهب أنا إليها وأتملص منها قائلا إننى أريد مرافقتكما إلى العربة والاطمئنان على سلامة رحيلكما وتسديد أجر السفر عنكما . — أيتها المسكينة . لسوف أخدعك مستغلا طيبة قلبك . هيا بنا . هلم نرحل .

تسيتسيليه : نرحل ؟ أريد أن أقول لك أولا كلمة يمليها على العقل .

فرناندو : هيا نرحل توا . ولا داعى للكلمة الآن . نعم يا حبيبتى ، هيا نرحل.

(تسيتسيليه ولوتسيه تخرجان)

فرناندو (وحده) : نرحل ؟ — إلى أين ؟ إلى أين ؟ ضربة واحدة بالخنجر يمكن أن تفتح الطريق أمام هذه الآلام . وأن تدفع بى نحو فقدان بليد للشعور أضحى الآن بكل شىء من أجل بلوغه.— هل أنت هنا أيها البائس ؟ تذكر الأيام المفعمة بالسعادة التى كنت تقف فيها قانعاً أشد القناعة فى وجه المسكين عندما كان يعزم على التخفف من إصر الحياة . كيف كانت أحاسيسك فى تلك الأيام السعيدة ، وكيف هى الآن . نعم . السعداء . السعداء . لو كان هـذا اللقاء قد بكر ساعة لكان فى تبكيره نجاتى

ممـــا أنا فيه الآن من كرب . لو أنني التقيت بهما أولا لما أتيت إليها ، ولكان فى مقدورى أن أقنع نفسى بالانصراف عنها قائلا لنفسى : إنها قد نسيتك على مر السنوات الأربع ، وعرفت السبيل إلى تخفيف آلامها . ولكن ما العمـــل الآن ؟كيف أظهر أمامها ؟ وماذا أقول لهـــا ؟ ما أعظم ذنبى . وما أشد وطأته على فى هـــذه اللحظات . لقد هجرت الحبيبتين ، زوجتى وابنتى فيما مضى . فلما جدتهما الآن ، هجرتنى نفسى . ما أعظم محنتى . مسكين أنت يا قلبى :

الفصل الرابع

(الصومعة فى حديقة شتيللا)

شتيللا : إنك تزدهر جميلا جمالا يفوق ما عهدته فيك من قبل ، يا مكان الراحة الأبدية المأمولة ، أيها المكان الحبيب ... أما أنت أيتها الأرض الرطبة الرخوة فإننى أرتعد لرؤياك ... لكم أحطت رأسى وصدرى ، فى ساعات الخيال ، بمعطف الموت ، ووقفت رابطة الجأش عند شفا حفرتك العميقة ، ثم خطوت هابطة إليها ، موارية قلبى المليء بالأحزان فى غطائك الحى . وأنت ، أيها البلى ، عليك أن تمتص كالطفل الرضيع الحبيب كل ما فى هـــذا الصدر الفياض الجياش ، وأن تحيل وجودى كله إلى حلم لطيف . وأنت يا شمس السماء . إنك تنفذين إليها بضوئك . والضوء حولى والانطلاق .. وأنا أنعم بهما . لقد عاد . وهـــذه هى الخليقة تقف فى ركن حوالى مليئة بالحياة .. وأنا كلى حياة ..... وأنا أريد أن أشرب حياة جـــديدة ، أكثر دفئاً واستعاراً .. أشربها من شفتيه .. وأن أذهب إليه .. وألبث لديه ، معه ، فى قوة دائمة لا تبيد .. فرناندو . — إنه قادم . فلأرهف السمع . لا . إنه لم يخط إلى بعد . ينبغى أن يجدنى هنا ، عند هيكل نجيلى ، تحت أغصان ورودى . . وهذه الوردة المقفلة أقطفها له . — — هنا هنا . ثم أقتاده إلى هـــذه السقيفة . من الخير والصواب أننى أعددتها لتضم — على ضيقها — شخصين اثنين . كان كتابى هنا . وهـــنا كانت أدوات الكتابة . فلأرمين الكتاب بعيداً . ولأقذفن بأدوات

الكتابة . ليته يأتى . هـــل هجرنى ثم عاد إلى « منذ قليل . هل عاد حقاً إلى ؟ » — هل هو هنا ؟ —

(فرناندو يدخل)

شتيللا : أين كنت يا أعز الناس عندى ؟ أين أنت ؟ لقد طال انتظارى وحــدى ، طال ، طال . (خائفة) ماذا بك ؟

فرناندو : لقد عكرت الاثنتان مزاجى . . الحق أن الأم امرأة طيبة ، ولكنها لا تريد البقاء . ولا تريد الإفصاح عن السبب . فدعيها تنصرف يا شتيللا .

شتيللا : إذا لم تكن تريد أن تقتنع ، فليس لى أن أكرهها على ما لا تريد . ولقد كنت ، يا فرناندو ، بحاجة إلى صحبة ، أما الآن .. (تعانقه) فأنت معى ، يا فرناندو .

فرناندو : هدئى من روعك .

شتيللا : دعنى أبكى . كم تمنيت أن ينقضى النهار . وهــذه عظامى لا تزال ترتجف . يالليهجة . لقد تحققت دفعة واحدة كل الأشياء التى لم أكن أتوقعها . أنت يا فرناندو . لا أكاد .. لا أكاد .. آه . إننى أذوب فى هــذا كله .

فرناندو (لنفسه) : يا لبؤسى . كيف أتركها ؟ (بصوت عال) دعينى يا شتيللا .

شتيللا : إنه صوتك ، صوتك المتيم حباً . يقول : شتيللا . شتيللا . وأنت تعرف كم كنت أحب أن أسمعك تنطق اسمى : شتيللا . ليس هناك إنسان آخر ينطقه كما تنطقه أنت . روح الحب كله فى نبرتك . — إننى أذكر بوضوح ، دونه كل وضوح ، ذلك اليوم الذى نطقت فيه اسمى لأول مــرة وبدأت فيه سعادتى بك كلها .

فرناندو : السعادة ؟

شتيلا : أظنك ستبدأ فى الحساب ، فتعد الساعات الكئيبة التى اصطنعتها لنفسى من أجلك . دع هـذا يا فرناندو . ولا تعبأ به . آه . منذ اللحظة التى رأيتك فيها لأول مرة تغير كل شىء فى روحى كل التغير . أتذكر عصر ذلك اليوم ، فى الحـديقة عند عمى . كيف دخلت علينا ؟ كنا نجلس تحت أشجار أبى الفرو خلف استراحة الحفلات ؟

فرناندو (لنفسه) : كلامها يقطع نياط قلبى . (بصوت عال) نعم أذكرها يا شتيلا ، يا حبيبتى .

شتيلا : كيف دخلت علينا ؟ لا أعرف هل لاحظت أنك ملكت على انتباهى منذ اللحظة الأولى ؟ أما أنا فقد لاحظت بعد قليل أن عينيك كانتا تبحثان عنى . آه يا فرناندو . ثم أتى عمى بالموسيقى ، وتناولت أنت كمانك وأخذت تعزف ، وكانت عيناى ثابتتين عليك فى أثناء العزف لا يعكرهما هم أو حزن . كنت أستشف كل نغمة من وجهك وتعبيره ، حتى فتحت عيناك على — فى أثناء وقفة مفاجئة — ولاقت عيناك عينى ، فاحمر وجهى خجلا ، وأشحت ببصرى ، ولاحظت أنت ما ألم بى يا فرناندو . وأيقنت أنا من ذلك لأننى شعرت منذ ذلك الوقت بأنك ترفع عينيك عن النوته المرة بعد المرة ، وفى مواضع غير مناسبة فى كثير من الأحيان ، حتى خـرجت على الإيقاع خروجاً أحـدث بعمى الاضطراب والارتباك . كانت كل حركة خاطئة يتحركها القوس على أوتار الكمان تنفذ يا فرناندو إلى حنايا روحى . كان ذلك الارتباك أحلى ارتباك أحسست به فى حـياتى .

وما كنت لأرضى برؤياك على تلك الحال مرة أخرى ، ولو أعطيت كل ما فى الدنيا من ذهب ... والتقطت أنفاسى وبرحت المكان ..

فرناندو : إنك تذكرين أدق التفصيلات (لنفسه) يا لها من ذاكرة تعيسة .

شتيللا : إننى كثيراً ما أدهش ، أنا نفسى ، عندما أتمثل مقدار حبى لك ، وكيف أننى أنسى ذاتى كل النسيان فى كل لحظة أقضيها معك . وأذكر — رغما عن ذلك — كل شىء حاضراً أمامى ، حياً ، نشيطاً كأنه يجرى اليـــوم ؟ وما أكثر ما قصصت القصة على نفسى . ما أكثر ما قصصتها على نفسى ، يا فرناندو كيف سعيت إلى « ومعك صديقتى تتأبط ذراعك ، وكنت قد عرفتها قبلى . . وكيف مررتما بالخميلة . . ونادت هى على « شتيللا » . . وناديت أنت « شتيللا . شتيللا . » وما كدت أسمع نداءك حتى عرفت صوتك . . ثم أقبلتما نحوى .. وأمسكت أنت يدى . فمن كان منا أشد ارتباكاً من الآخر ، أنا أم أنت ؟ — ثم أعنتنى وأعنتك .. وكانت لحظة حدث فيها كل شىء .. وهذا ما قالته لى صديقتى ساره فى المساء ذاته . ما كان أسعدنى بين ذراعيك . ليت سارة رأت نعيمى . لقد كانت امرأة طيبة ، وكانت تكثر البكاء على عندما مرضت ، وما كان بى سوى الحب علة . ولكم وددت أن آخـــذها معى عـــندما تركت كل شىء من أجلك .

فرناندو : تركت كل شىء .

شتيللا : لماذا يدهشك هذا ؟ أليست هذه هى الحقيقة ؟ لقد تركت من أجلك كل شىء. أم تراك تستطيع أن تسىء فهمى فتحمل

ما نطق به فم شتيللا على محمل اللوم ؟ لا ، إننى لم أفعل من أجلك ما يكفى على الإطلاق .

فرناندو : أتصدقين . وعمك الذى كان يحبك حب الأب لأبنائه ، والذى كان حنوناً عليك ، يحملك على يديه ، ويجعل إرادتك إرادته ؟ والأموال والأراضى التى كانت ملكاً لك ، وتلك التى كانت ستؤول إليك . ألم تكن شيئاً ؟ ألم تكن شيئاً كثيراً ؟ والمكان الذى عشت فيه صباك ، وفرحت فيه ؟ وأترابك .

شتيللا : وما يساوى هذا كله بدونك يا فرناندو ؟ أى قيمة كانت له قبل حبك ؟ عندما أشرق نور حبك فى روحى ثبت قدمى فى الدنيا .. وأعترف لك بأننى كنت أحياناً أفكر فى بعض ساعات وحدتى : لماذا لا يتاح لى أن أنعم بكل هـذا معه ؟ لماذا تحتم علينا أن نهرب ؟ لماذا لا أظل مالكة لكل هـذه الأشياء ؟ أكان عمى ليرفض أن يعطيه يدى ؟ — لا . — ولماذا الهرب ؟ — ولكننى كنت أجد لك من الأعذار ما فيه الكفاية . كنت ألتمسها أنا لك . حتى فى الوقت الذى لم أجد لى فيه أعذاراً . حدثتنى نفسى بأنها قد تكون نزوة .. وأنتم معشر الرجال كثيرو النزوات .. نزوة تهدف إلى الحصول على البنت فى السر كالحصول على الغنيمة .. أو قد يكون كبرياء منك يرمى إلى الحصول على البنت وحـدها دون عطية معها . ويمكنك أن تتصور أن كبريائى لم يكن أقل حرصاً على دعم الثقة فى أفضل الأعذار . وأياً كان الأمر فقـد التمست لك من الأعذار ما جعل الحق فى جانبك والتوفيق حليفك .

فرناندو : إننى هالك لا محالة .

(أنشن تدخل)

أنشن : معذرة يا سيدتى الكريمة . فيم تأخرك يا سيادة النقيب ؟

لقد حزمت الأمتعة كلها ، ولم يبق إلا أن تأتى . لقد تعبت الآنسة اليوم جرياً وتدبيراً حتى لم تعد تحتمل . وهأنتذا تتأخر فلا تأتى .

شڤيللا : اذهب يا فرناندو ، أوصلهما ، وادفع لهما أجر السفر .. ولكن عد إلى حالا .

أنشن : ألن تسافر معهما ؟ لقد استأجرت الآنسة عربة لثلاثة ركاب . وخادمك حزم أمتعتك .

شڤيللا : هذا خطأ يا فرناندو .

فرناندو : ومن أين للصغيرة بمعرفة جديرة بالتصديق ؟

أنشن : من أين لى ؟ من البديهى أن يجد الناس غرابة فى عزم السيد النقيب على الرحيل وهجر السيدة الكريمة .. مع البنت التى تعرف إليها على المائدة . لقد كان وداعك لها عاطفياً عندما ضغطت على يدها متمنياً لها وجبة مباركة وطعاماً هنيئاً ؟

شڤيللا (مضطربة) : فرناندو .

فرناندو : إنها طفلة صغيرة .

أنشن : لا تصدقى يا سيدتى الكريمة . لقد حزمت الأمتعة كلها والسيد مسافر معهما .

فرناندو : إلى أين . إلى أين .

شڤيللا : دعينا وانصرفى يا أنشن .

(أنشن تخرج)

شڤيللا : انتشلنى من حيرتى الفظيعة . ليس من طبعى الخوف ولكن ثرثرة البنت تخيفنى . . . وما بالك قد اضطربت يا فرناندو . أنا حبيبتك شڤيللا .

فرناندو (يدور حوله ويمسك يدها) : أنت حبيبتي شتيللا .

شتيللا : أنت تفزعني يا فرناندو . ما بالك تنظر نظرات شرسة .

فرناندو : شتيللا . أنا رجل شرير وجبان . ولا أستطيع حيالك شيئاً . الفرار ؟ ليست لدى الشجاعة لأسدد إلى صدرك ضربة خنجر . . ولكنني أريد أن أدس لك السم سراً وأن أقتلك يا شتيللا .

شتيللا : أعوذ بالله .

فرناندو (منفعلا كل الأنفعال ، مرتعداً) : حتى لا أرى بؤسهما .. وحتى لا أسمع عن يأسهما . ليس أمامى إلا الفرار . الفرار . —

شتيللا : لا أحتمل . (توشك أن تقع مغشياً عليها فتستند إليـــه)

فرناندو : شتيللا . يا من أطوقك بذراعى . شتيللا . يا من أنت كل شيء بالنسبة إلى . شتيللا . (بفتور) إننى راحل عنك .

شتيللا (تبتسم حائرة) : عنى أنا .

فرناندو (كاشراً عن أسنانه) : عنك أنت . مع المرأة والبنت اللتين رأيتهما .

شتيللا : ثم يسدل الليل أستاره .

فرناندو : هذه المرأة هي زوجتى .

شتيللا (تحملق فيه وإذا بذراعيها يخوران)

فرناندو : والبنت ابنتي . شتيللا . (يتبين أنها قد غابت عن الوعى) شتيللا . (يحملها إلى مقعد) شتيللا . النجدة . النجدة .

(تسيتسيليه ولوتسيه تدخلان) .

فرناندو : انظرا إلى الملاك . لقد انتهت . انظرا إليها . النجـــدة .
(تجتهدان فى إسعافها)

لوتسيه : إنها تسترد وعيها .

فرنانلو (يتطلع إليها فى صمت) والفضل لك . والفضل لك . (يخرج)

شتيللا : من ؟ من أنت ؟ (تنتفض) أين هو ؟ (تهوى إلى مرقدها وتتطلع إلى الأم والبنت وهما تسعفانها) شكراً لكما . شكراً . من أنتما ؟

تسيتسيليه : هدئى من روعك . إننا من تعلمين .

شتيللا : أنتما ؟ ألم ترحلا بعد ؟ — أنتما ؟ — رباه . من قال لى إنهما .. من أنت ؟ هل أنت .. ؟ (تسيتسيليه تمسك بيديها) لا . أنا لا أحتمل .

تسيتسيليه : أنت أعظم وأحب البشر إلى قلبى . دعينى أضمك ، أيها الملاك الكريم . إلى صدرى .

شتيللا : ولكن قولى لى — فإن اهتمامى بمعرفة الحقيقة تبلغ أعماق روحى — قولى لى .. هل أنت ..

تسيتسيليه : نعم أنا .. أنا زوجته .

شتيللا (تنتفض وتغطى عينيها) : وأنت ؟ — أنت .. (تقطع المكان فى حيرة جيئة وذهاباً)

تسيتسيليه : تعالى إلى حجرتك .

شتيللا : بمن تذكريننى ؟ — — شيء فظيع ، فظيع . — هل هذه هى الأشجار التى غرستها وتعهدتها ؟ لماذا تصبح كل الأشياء فى هذه اللحظة غريبة على كل الغرابة ؟ — أنا امرأة منبوذة . ضائعة . ضائعة إلى الأبد . فرنانلو .

تسيتسيليه : اذهبى يا لوتسيه وابحثى عن أبيك .

شتيللا : بل قفى بحق الله . اذهبى إليه ، وقولى له ألا يأتى . — ابعد عنى يا أيها الأب — يا أيها الزوج ..

تسيتسيليه : يا حبيبتى الحلوة .

شتيللا : أنت تحبيننى . وتضميننى إلى صدرك . لا . لا . دعينى . انبذينى . (تتعلق بها وتعانقها) بقيت لى فى هــذه الدنيا لحظة أخرى . وستنتهى حياتى . آه يا قلبى . آه قلبى .

لوتسيه : لا بد من أن ترتاحى .

شتيللا : إننى لا أحتمل النظر إليكما . لقد سممت حياتكما ، وسلبتكما كل شيء . وتركتما تترديان إلى البؤس .. بينما كنت أنا .. آه للنعيم بين ذراعيه . (تركع) هل تصفحان عنى ؟

تسيتسيليه : كفى عن هــذا الكلام . (تجتهدان فى إنهاضها)

شتيللا : بل أريد أن أركع هنا ، وأن أولول ، وأتوسل إلى الله وإليكما طالبة الصفح والغفران . (تهب واقفة) فيم حــديثى عن الغفران ؟ بل أفرغا على العزاء . والسلوان . فلست مذنبة . أنت — أيها الإله القدسى فى السماء — قد أعطيتنيه . ولقــد تمسكت به تمسكى بأحب نعمة نلتها من يدك .. دعينى . إن قلبى يتمزق .

تسيتسيليه : أيتها الإنسانة البريئة . أيتها الحبيبة .

شتيللا (تطوقها بذراعيها) : إننى أقرأ فى عينيك وعلى شفتيك كلمات السماء . امسكينى . احملينى . إننى أهوى إلى الأرض . إنها تسامحنى . إنها تشعر بمحنتى .

تسيتسيليه : أختاه . أنت يا أختى . تمالكى نفسك . استردى قوتك لحظة . وآمنى بأن الذى بث فى قلوبنا هذه المشاعر بما تجره علينا من بؤس ، قادر على أن يهيء لنــا حيالهــا العــون والسلوان .

شتيللا : دعينى أموت بين ذراعيك .

تسيتسيليه : تعالى .

شتيللا (تسكن فترة ثم تنتفض بعدها منفعلة غاية الانفعال) : دعونى . انصرفوا عنى كلكم . إن عالما من الاضطراب والعذاب يجتاح روحى ويغمرها بآلام لا سبيل إلى التعبير عنها .. هـــذا محال . محال . هـــكذا دفعة واحدة . هذا شىء لا سبيل إلى فهمه .. ولا سبيل إلى إحتماله .

(تقف برهة ناظرة إلى أسفل فى سكون ، منطوية على ذاتها ، ثم ترفع بصرها وتنظر إلى الاثنين فتنتفض صـــارخة وتندفع كالهاربة)

تسيتسيليه : اذهبى وراءها يا لوتسيه . ولاحظيها .

(لوتسيه تخرج)

تسيتسيليه : سبحانك رب السماء . انظر إلى خلقك وما هم فيه من حيرة وبؤس . لقد تعلمت من العذاب الشىء الكثير . فقو عزيمتى . وإذا كان هناك سبيل إلى حل العقدة ، فلا تقطعها .

الفصل الخامس

(حجرة شتيــلا . فى ضــوء القمر)

شتيللا : أحيطى بى يا غمرة الليل . تشبثى بى ، وقودى خطاى . اننى لا أعرف أين أضع قدمى .... لابد من أن أخرج إلى الدنيا الواسعة .. أريد الانطلاق . ولكن إلى أين ؟ آه .. إلى أين ؟ منفية عن أقطار الخليقة ، حين تبث أنت . أيها القمر المقدس، ضوءك الخافت على هامات أشجارى .. أم هل ينبغى على أن أمتنع منذ الآن عن التجوال فى هذا المكان الذى تحيط فيه قبر حبيبتى مينا بأشباح حبيبة رهيبة ؟ فى هذا المكان الذى يحوى كل كنوز حياتى ويضم ذكرياتى البهيجة جميعاً ؟ — وأنت أيها الموضع الذى كثيراً ما أقمت فيه بين التأمل والبكاء ، أنت يا موضع قبرى الذى خصصته لنفسى حتى يتلاشى فى جنباته كل ما اتصل فى حياتى من حزن وسرور . أنت أيها الموضع الذى كنت آمل أن أهيم فيه وحدى ، وأن أتمتع بالماضى خائرة واهية .. هل أبعدنى النفى عنك أنت كذلك ؟ — هل أنا منفية ؟ — ما بالك صامد جامد . ولكن أحمـــد الله على ذلك .. وأنت ما بال مخك أصبح خراباً ، لا يستطيع فهم الفكرة ، فكرة النفى والمنفى . إنك توشكين على الجنون . — — آه . لقد أصابنى الدوار . وداعاً . وداعاً . إلى غير لقاء ؟ هذه نظرة جامدة ميتة ، وإحساس كله فتور . إلى غير لقاء ؟ — ارحلى يا شتيللا . (تمسك اللوحة) وهل أتركك ؟ (تتناول سكيناً وتشرع فى فض المسامير) ليتنى كنت بلا أفكار ؟ فأقضى حياتى فى نوم بليد ودمــوع

جارفة . ـــ هذا هو الحاضر .. وذلك هو المستقبل : ـ أنت بائسة . (تحول اللوحة ناحية القمر) آه يا فرناندو . عندما أقبلت على وانتفض قلبي للقياك ، ألم تحس بثقتي في إخلاصك ويقيني من طيبتك ؟ ألم تحس بقدس الأقداس ينفتح لك ، عندما انفتح لك قلبي ؟ ـ ألم ترتجف مرتداً عني ؟ ألم تخر على الأرض ؟ ألم تهرب ؟ ـ لقد استطعت أن تقطف براعتي وسعادتي وحياتي لتتلهى بها ، ولتنثرها على قارعة الطريق دون أن تفكر في شئ . ـ أيها الإنسان النبيل . ها ! ها ! أيها الإنسان النبيل . يا لشبابي ؟ يا لأيامي الذهبية . إنك تخفي النفاق العميق في قلبك . زوجتك . ابنتك . ـ أما أنا فقد كانت روحي خالصة ، نقية كالصبح في يوم من من أيام الربيع . كان كل شيء ، كل شئ أملا واحداً ـ أين أنت يا شتيللا ؟ (تتطلع إلى اللوحة) كل هذه العظمة . كل هذه الرقة الناعمة . لقد كانت نظرتك هي التي أودت بي إلى التهلكة . أنا أكرهك . ابعد . ابعد عني . هكذا في الضوء الخفيض . الحبيب . لا . لا . يا أيها الفتاك . إنك تهلكني أنا . أنت تهلكني . (تلوح بالسكين ناحية اللوحة) فرناندو . (تشيح بوجهها بعيداً فتسقط السكين من يدها ، وتهوى أمام الكرسي الوثير وقد انهمرت الدموع الجارفة من عينيها) يا أعز حبيب . يا أعز حبيب . ـ لا جدوى . لا فائدة .

(خادم يدخل)

الخادم : سيدتي الكريمة ، لقد نفذنا أمرك وأعددنا الخيول عند باب الحديقة الخلفي . وحزمنا أمتعتك . لا تنسى أن تأخذى معك شيئاً من المال .

شتيللا : وهذه اللوحة .

الخادم (يتناول السكين ويفض اللوحة من إطارها ويلفها)

شتيللا : إليك هـذه النقـود ؟

الخادم : لمـاذا ؟

شتيللا (تظل ساكنة لحظة تنظر حواليها) : تعال .

(يخرجان)

(قاعـة)

فرناندو : دعنى . دعنى . آه إنه يمسكنى مرة أخرى ويحدث بى اضطراباً بالغ البشاعة . ها هو ذا كل شىء يمثل أمامى بارداً قبيحاً — كما لو كان العالم عدما — وإن صح هـذا ، فما تحملت فيه بذنب . — وهى . — ها . ألست أكثر بؤساً منكم ؟ ماذا تطلبون منى ؟ — وما هى نهاية التأمل ؟ هنا . وهنا . من البداية إلى النهاية . التأمل العميق . التأمل العميق الذى لا تخبو له جذوة . إنه يزيد عذاباً . ويزيد بشاعة . (يمسك جبينه) وأخيراً ينقلب إلى العكس . إنه لا يتقدم إلى أمام ولا يتحرك إلى خلف . ولست أجد نصحاً ولا عوناً . وماذا عن هاتين المرأتين ؟ ماذا عن هاتك النساء الثلاث ، وهن فضليات نساء الأرض ، وقـد تردين إلى البؤس بسببى — وبلونى — وزاد بؤسهن معى — — ليتنى أستطيع الشكوى ، ليتنى أستطيع اليأس ، ليتنى أستطيع أن ألتمس الصفح . . ليتنى أستطيع أن أقضى ساعة فى أمل بليد . . وأتمتع بالنعيم فى بؤس مفعم بالسلوان عند أقدامهن . . أين هن ؟ شتيللا . إنك راقدة ، منكفئة على وجهك ، تنظرين محتضرة إلى السماء وتتأوهين قائلة : « ما الذى أذنبته أنا الزهرة ، حتى يقصف غضبك عودى ؟ ماذا أذنبت ، أنا المسكينة . حتى تسوقين إلى هذا الإنسان الشرير . » —

تسيتسيليه . زوجتى . زوجتى . يالبؤس . يالبؤس العميق .
ما بال النعيم تتجمع آيانه حولى فإذا أنا إنسان بائس .
زوج . وأب . وعاشق . وفضليات النساء . لك . لك أنت .
هل تستطيع أن تفهم هذا . هذا النعيم الذى يستعصى على
الوصف ؟ هذا النعيم هو الذى يتشبث بك و يمزقك إرباً .
كل واحدة منهن تطالب بى كاملا . — وأنا ؟ — لقد انقفل هذا
القلب هنا . حتى أعماقه . أعماقه التى لا سبيل إلى سبر أغوارها .
وتبقى هى بائسة . شتيللا . هل أنت بائسة . — ماذا سلبتك ؟
وعيك بذاتك .. وحياتك وشبابك . شتيللا . وأنا بليد إلى هذا
الحد ؟ — (يتناول مسدساً من فوق المائدة) لكل الاحتمالات .
(يشحن المسدس)　　　　(تسيتسيليه تدخل)

تسيتسيليه : يا أعز الناس عندى . كيف حالنا ؟ — (تنظر إلى المسدس) إن منظره يوحى بالتأهب للرحيل .

فرناندو (يضع المسدس)

تسيتسيليه : أى صديقى. إنك تبدو أكثر هدوءاً . هل لى أن أتحدث معك ؟

فرناندو : ماذا تريدين ياتسيتسيليه ؟ ماذا تريدين يا زوجتى ؟

تسيتسيليه : لا تنادنى هكذا حتى تسمع كلامى إلى نهايته . لقد استبد بنا جميعاً اضطراب شديد . أليس من سبيل لحل المشكلة ؟ لقد عانيت الكثير ، ولهذا لا أريد قرارات عنيفة . أتسمعنى يا فرناندو ؟

فرناندو : نعم أسمعك .

تسيتسيليه : اصغ إلى ما سأقوله لك . أنا لست إلا امرأة ، امرأة كثيرة الحزن ، كثيرة الشكوى . ولكن العزم يكمن فى قلبى . — لقد صح عزمى على شىء يا فرناندو : سأتركك وأنصرف لحال سبيلى .

فرناندو (ساخراً) : باختصار ؟

تسيتسيليه : هل تعني أنه ينبغي على الإنسان أن يقول كلمات الوداع وراء باب مقفل حتى يترك من يحب ؟

فرناندو : تسيتسيليه .

تسيتسيليه : أنا لا ألومك على شيء . ولا أظن أنني أضحي من أجلك بالكثير . لقد كنت حتى الآن أشكو فقدانك . وكنت أتعذب لشيء لم أكن أستطيع تغييره . ثم كان أن وجدتك ، وأوحى إلى وجودك حياة جديدة ، وبث في « قوة جديدة . إنني أحس ، يا فرناندو ، بأن حبي لك ليس أنانياً ، ليس حب امرأة عاشقة تبدد كل شيء في سبيل نيل المحبوب المأمول . إن قلبي ، يا فرناندو ، دافيء ، عامر من أجلك . وإحساسي نحوك إحساس زوجة تستطيع عن حب أن تضحي حتى بحبها .

فرناندو : هــذا لن يكون .

تسيتسيليه : ما بالك تثور هــكذا ؟

فرناندو : إنك تعذبينني .

تسيتسيليه : لابد من أن تنال السعادة ، لدى ابنتي ، وأنت ستكون لي صديقاً . فهلم ننفصل بغير فراق . وقد عزمت على أن أعيش بعيدة عنك ، وأن أظل شــاهدة على سعادتك . وسوف أكون الأمينة على سرك ، الجديرة بثقتك ، تصب في صدري تيار فرحك وحزنك . ولتكن خطاباتك إلى كل حياتي . ولتكن خطاباتي إليك زائراً حبيباً . وهــكذا تبقى لي ، ولا يكون عليك أن تعيش منفياً مع شتيللا في ركن من أركان الأرض . إننا متحابون ، متعاطفون . هات يدك يا فرناندو ، وعاهدني على ذلك .

فرناندو : لو كان ذلك منك هزلا ، لكان هزلا فظيعاً ، ولو كان جداً ، لكان جداً لا سبيل إلى فهمه . ليكن ما يكون يا أعز الناس عندى . — إن التفكير البارد لا يحل المشكلات . إن ما تقولينه يحدث رنيناً جميلا ويبدو حلو المذاق . وأين ذلك الإنسان الذى لا يشعر بأن كلامك يخفى أكثر مما يظهر ، يخفى أنك تضللين نفسك عندما تسكتين أحاسيسك التى تعذبك أشد العـــذاب بعزاء متوهم يعمى البصر . لا يا تسيتسيليه . لا يا زوجتى . لا . إنك لى . وأنا لك على الدوام . وماذا تجدى الكلمات ، وماذا يجدى استعراض الأسباب والمسببات ؟ فما الأسباب والمسببات إلا أكاذيب . سأظل لك أو . .

تسيتسيليه : ما العمل ؟ ماذا عن شتيللا ؟

فرناندو (يقطع المكان جيئة وذهاباً فى انفعال شديد)

تسيتسيليه : من الذى يخدع نفسه ؟ من الذى يخدر آلامه بعزاء بارد متهالك لا شعور فيه ولا فكر ؟ آه . أنتم أيها الرجال تظنون أنكم تعرفون أنفسكم ؟

فرناندو : لا تتفاخرى برباطة جأشك . شتيللا . شتيللا بائسة . وسوف تقضى حياتها بعيده عنى وعنك تشكو ما وسعها الشكوى . دعيها ودعينى .

تسيتسيليه : إننى أعتقد أن العزلة ستخفف عن قلبها . وسيخفف عاطفتها الرقيقة أن تعرف أن شملنا قد اجتمع . أما الآن فإنها توجه إلى نفسها ألواناً من اللوم المرير . ولسوف تعتبرنى أكثر تعاسة عن ذى قبل إذا أنا تركتك . لأنها تزنى بميزانها . وهى لن تعيش هادئة . ولن تستطيع أن تحب — وهى الملاك الكريم — إذا شعرت بأن سعادتها تقوم على سلب الآخرين سعادتهم . والأفضل لهـــا . .

فرناندو : دعيها تهرب . دعيها تذهب إلى الدير .

تسيتسيليه : وإذا أنا فكرت على النحو التالى : لماذا ينبغى عليها أن تحبس نفسها بين أسوار الدير ؟ ما هو الذنب الذى ارتكبته حتى تضيع فى الشكوى والولولة السنوات الزاهرة ، سنوات الازدهار ، سنوات الأمل الناضج ، وتنتهى يائسة إلى الهاوية ؟ منعزلة عن عالمها الحبيب — عن الرجل الذى أحبته حباً عارماً — الرجل الذى — — إنك تحبها ، يا فرناندو ، أليس كذلك ؟

فرناندو : ها . ما معنى سؤالك . هل أنت روح شريرة اتخذت هيئة زوجتى ؟ لماذا تقلبين قلبى على كل وجه ؟ لماذا تمزقين ما قد تمزق ؟ ألست محطماً ، هالكاً بما فيه الكفاية ؟ أتركينى . دعينى لمصيرى . — وليشملكم الله برحمته . (يلقى بنفسه فى كرسى وثير)

تسيتسيليه (تتقدم نحوه وتمسك يده) : يحكى أن بارونا — —

فرناندو (يهم بالنهوض ثائراً فتمسكه)

تسيتسيليه : — بارونا ألمانيا ، دفعه إحساس كريم إلى الرحيل بعيداً عن زوجته ، وضياعه ، إلى الأرض الموعودة .

فرناندو : ها .

تسيتسيليه : — وكان رجلا طيباً ، يحب زوجته ، فودعها ، وأوصاها على داره ، وعانقها وانطلق فى طريقه . فاجتاز بلاداً كثيرة ، وحارب ووقع فى الأسر . ورقت لحاله ابنة سيده ، ففكت أغلاله ، وهرب الاثنان . وسط أهوال الحرب والمعارك الضارية ، حتى توج النصر هامته ، وسلك سبيل العودة إلى زوجته الكريمة وإلى ابنته . كان يحس بالإنسانية ، وكان يؤمن بالإنسانية . فأخذها معه . — وها هى ذى المرأة ، ربة البيت ، تسرع إلى زوجها ، وترى أنها إذ تضمه بين ذراعيها من جديد تنال جزاءها على إخلاصها رثقتها وآمالها .

وكان حوله فرسانه ، يهبطون بخفة من فوق ظهور جيادهم إلى أرض الوطن ، يجللهم شرف كله كبرياء . وأخذ غلمانه ينزلون الغنيمة كلها ، ويضعونها عند أقدامهم . كانوا يدبرون فى خيالهم ، كيف يحفظون كل هـذه الأشياء فى خزائنهم . وكيف يجملون بها قصورهم ، وكيف يقدمون منها الهدايا إلى أصدقائهم — أما أنت أيتها المرأة الكريمة فقدعاد إليك الحبيب وهو أعظم الكنوز . — ومن هذه المرأة المتحجبة التى تقترب من الجموع ؟ إنهـا تنزل بخفة من فوق الحصان — « إنها هى » — هكذا يصيح البارون وهو يمسك بيدها ويرافقها إلى زوجته . « إنها هى هنا . انظـرى إلى كل ما لديها — ليس لها غيرى — خذى كل شئ من بين يديها — خذينى من بين يديها مرة أخرى . لقد فضت الأغلال التى رسفت فيها عنقى ، وأمرت الرياح فتحركت بأمرها . ونالتنى — وخدمتنى ورعتنى — فبأى دين أدين لها ؟ — ها هى ذى عندك — فجازيها . »

فرناندو (يرتكن بذراعيه إلى المائدة وهو يبكى وينشج)

تسيتسيليه : وصاحت الزوجة المخلصة وهى تعانقها وتذرف الدموع : « خذى كل شيء أستطيع أن أعطيك إياه . خذى ما هو كله لك . خذيه كاملا . ودعيه لى كاملا . ليكن لكل واحدة منا . تناله كاملا دون أن تسلب الأخرى شيئاً — و — » . ثم صاحت وهى تعانقه ، ثم وهى تركع عند قدميه : « إننا لك . » — وأمسكت الاثنتان بيديه ، وعانقتاه — وسعد رب السماء بالحب . وباركه الولى المقدس . وشملت سعادتهم الناعمة سكناً واحداً وفراشاً واحداً وقبراً واحداً . (١)

فرناندو : يارب السماء.يا من أرسلت إلينا الملاك فى المحنة . امنحتنا القوة

(١) موضع النهاية الأخرى التى ظهرت فى طبعة عام ١٨١٦ .

(المترجم)

التى تمكنا من احتمال هــذه الرؤى الهائلة . أى زوجتى
(يرتمى فى كرسيه مرة أخرى)

تسيتسيليه : (تفتح باب الحجرة وتنادى) : شتيللا .

شتيللا (تعانقها) : رباه . رباه .

فرناندو (ينتفض من فرط الانفعال ويهم بالفرار) .

تسيتسيليه (تمسك به) : شتيللا . خذى نصف من هو لك كاملا — فأنت قد أنقذته — أنقذته من نفسه — وأعدته إلى .

فرناندو : شتيللا . (ينحنى نحوها)

شتيللا : لا أصدق هــذا .

تسيتسيليه : ولكنك تحسين به .

شتيللا (تعانقه) : هل لى أن أعانقه ؟

تسيتسيليه : هل تشكريننى إذ رددتك أيتها الهــاربة ؟

شتيللا (تعانقها) : أنت . آه .

فرناندو (يعانقهما) : حبيبتى . حبيبتى .

شتيللا (تمسك يده وتتعلق به) : أنا لك .

تسيتسيليه (تمسك يده ثم تعانقه) : كلانا لك .

النهاية الأخرى التى ظهرت فى

طبعة عام ١٨١٦

فرناندو : رب السماء . يا لشعاع الأمل الذى ينفذ إلينا .

تسيتسيليه : إنها هنا . إنها هنا (تتجه إلى باب الحجرة) : شتيللا .

فرناندو : دعيها . دعينى . (يهم بالانصراف)

تسيتسيليه : ابق هنا . واسمعنى .

فرناندو : كفى كلاماً . سيكون ما يمكن أن يكون . دعينى . لست الآن مهيئاً لمواجهتكما معاً . (يخرج)

(تسيتسيليه .. ثم لوتسيه .. ثم شتيللا)

تسيتسيليه : يا لتعاسته . هكذا هو مقتر فى الكلام . معارض للألفاظ الودية المعبرة .. وهى أيضاً .. ولكننى مصممة على النجاح . (تتجه نحو الباب) شتيللا . اسمعينى ياشتيللا .

لوتسيه : لا تناديها . إنها تستريح لحظة من ألم شديد أصابها . إنها تتألم ألماً شديداً . وأنا أخشى يا أمى أن تكون قد أحدثت بنفسها هذا الألم المبرح عامدة . وأخشى أن تقضى نحبها .

تسيتسيليه : ماذا تقولين ؟

لوتسيه : إننى أخشى أن يكون هذا الذى تناولته عقاراً ساماً .

تسيتسيليه : وهكذا أتعلق بآمال واهية . ليتك تكونين مخطئة . شىء فظيع . شىء فظيع .

شتيللا (بالباب) : من ينادينا ؟ لماذا توقظونى ؟ فى أى وقت نحن الآن ؟ ما بال الوقت مبكر إلى هذا الحد ؟

لوتسيه : ليس الوقت مبكراً . لقد حل المساء .

تسيتسيليه : إنك هكذا تضللينا .

شتيللا : من الذى ضللك ؟ أنت .

تسيتسيليه : لقد عدت وكنت آمل —

شتيللا : لا بقاء لى هنا .

تسيتسيليه : ليتنى تركتك تذهبين .. ترحلين .. تسرعين إلى آخر الدنيا .

شتيللا : لقد وصلت إلى النهاية .

تسيتسيليه (إلى لوتسيه التى أخذت تجرى هنا وهناك هالعة) : فيما ترددك ؟ أسرعى ، اطلبى النجدة .

شتيللا (تمسك بلوتسيه) : لا . ابقى هنا . (تتكىء على الاثنتين . ويسير ثلاثتهم إلى الأمام) . لقد ظننت أننى سأعتمد على ذراعيكما فى شق طريقى عبر الحياة ، وإذا بكما تأخذان بيدى إلى القبر . (يقتادانهـا إلى الأمام ببطء ويجلسانهـا ناحية اليمين على كرسى وثير) .

تسيتسيليه : أسرعى يا لوتسيه . أسرعى . النجدة . النجدة .

(لوتسية تخرج)

(شتيللا وتسيتسيليه .. ثم فرناندو .. وبعد ذلك لوتسيه)

شتيللا : لقد لقيت العون المرجو .

تسيتسيليه : كم كنت أظن ظناً آخر .. وكم كنت أتعلق بآمال أخرى .

شتيللا : أنت أيها المرأة الطيبة ، الصابرة ، الآملة .

تسيتسيليه : يا له من قدر فظيع .

شتيللا : ان القدر يجرحنا جروحاً عميقة ، ولكنها تشفى فى أغلب الأحيان

أما الجروح التى يحدثها القلب فى القلب . أو التى يحدثها القلب فى ذاته فجروح لا تشفى — — فدعونى أموت .

فرناندو (يدخل) : هل كانت لوتسيه مسرفة فى التعجل ؟ أم هل الخبر الذى حملته صحيح ؟ قولى لى يا تسيتسيليه إنه غير صحيح ، وإلا صببت اللعنات على طيبتك وصبرك .

تسيتسيليه : إن قلبى لا يلومنى على شئ . والنية الطيبة أعظم وأبقى . اسرع طلباً للنجدة — إنها لا تزال حية — وإنها منا .

شتيللا (ترفع بصرها وتمسك يد فرناندو) : مرحباً . دع لى يدك . (إلى تسيتسيليه) ودعى لى يدك أنت أيضاً . لقد كان شعار حياتى : كل شيء من أجل الحب . كل شئ من أجل الحب . . ومن أجل الموت أيضاً . . الآن . لقد لزمنا الصمت فى أسعد اللحظات ! واتصل فى الصمت التفاهم بيننا (تبحث عن يدى الزوجين) فاتركانى الآن أصمت وأسكن . (تقع على ذراعها اليمنى المستندة إلى المنضدة) .

فرناندو : نعم . اننا نريد الصمت والسكون يا شتيللا . (يذهب ببطء إلى المائدة ناحية اليسار)

تسيتسيليه : (تنفعل انفعالا لا يستطيع معه الصبر شيئاً) : ما بال لوتسيه لا تأتى . لا أحد يأتى . هل أصبح البيت صحـــراء . هل أصبح الحى كله بجيرانه صحـــراء تمـــالك نفسك يا فرناندو . إنها ما تزال حية . ولقـــد نهض من فراش الموت مئات . . وما أكثر من خرجوا من القبور بعد أن دخلوها . فرناندو . إنها ما تزال حية . وإذا تخلى عنا كل شئ . ولم نجد طبيباً ، ولم نجد دواء ، ففى السماء واحد لا يزال يسمعنا . (يركع على ركبتيه بالقرب من شتيللا (اسمعنى يارب . استجب دعائى احفظها لنا . لا تدعها تموت .

فرناندو (يتناول بيده اليسرى مسدساً ويخرج بخطوات بطيئة)

تسيتسيليه (على حالها السابق ، تمسك يد شتيللا اليسرى) : نعم ، إنها ما تزال حية . ما تزال يدها ، يدها الحبيبة ، دافئة . أنا لن أتركك . بل سأظل أمسكك بكل سلطان الحب والإيمان . لا ، ليس هــذا جنونا ، فالصلاة المفعمة بالإيمان أقوى من كل عون دنيوى . (تنهض وتلتفت حولها) لقــد خرج الرجل الصامت اليائس . فإلى أين ذهب ؟ آه . عسى ألا يقــدم على الخطوة التى كانت حياته العاصفة كلها تدفعه إليها . فلأذهبن إليه . (تهم بالخروج فتلتفت إلى شتيللا) وهل أترك هــذه هنا بلا عون . سبحان الله العظيم . وهأنا ذى أقف فى أفظع اللحظات بين اثنين لا أستطيع تفريقهما ولا أقدر على ضم شملهما .
(طلقة من مسدس تنطلق عن بعد)

تسيتسيليه : رباه . (تريد أن تتبع الصوت)

شتيللا (تنهض قليلا بصعوبة) : ما هذا ؟ إنك يا تسيتسيليه تقفين بعيداً .. تعالى قريباً منى .. لا تتركينى . إنى خائفة أشد الخوف . آه ، يا لخوفى . إنى خائفة إذ أرى دما يسيل . هل هو دمى ؟ لا . ليس دمى . أنا لم أصب بجرح .. ولكنى مريضة مرض الموت . — بلى . إنه دمى .

لوتسيه (تأتى) : النجدة . أماه . النجدة . إنى أعدو التماساً للنجدة ، بحثاً عن طبيب ، وأرسل الرسل السراع ، ولكن .. آه .. هل أقول لك الخبر : إنى بحاجة إلى عون من نوع مختلف كل الاختلاف لقد خر أبى صريعاً .. قتل نفسه بيده .. وهو ممدد غارق فى دمه .

(تسيتسيليه تهم بالخروج ، فتردها لوتسيه)

لوتسيه : لا تذهبي إلى هناك يا أمي . إن المنظر يبدد الرجـاء ويثير اليأس .

شتيللا (تنهض نصفاً ، وتستمع بانتباه ، وتمسك بيد تسيتسيليه) : وهـكذا يكون المحتوم قد حدث ؟ (تنهض وتتكىء على تسيتسيليه ولوتسيه) تعاليا . إنني أحس القوة عادت إلى . تعاليا إليه . أريد أن أموت هناك .

تسيتسيليه : إنك تترنحين .. وركبتاك تعجزان عن حملك . ولن نستطيع نحن حملك . فقد خلت عظامنا من النخاع .

شتيللا (تهوى فى الكرسى الوثير مرة أخرى) : لقد بلغت الهـدف . اذهبي أنت إلى من أنت لـه ، فاسمعى زفرته الأخـيرة وحشرجته الأخيرة .إنه زوجك ؟مالك تترددين ؟ أرجوك . أتوسل إليك . إن بقاءك يثير قلقي . (منفعلة ، ولكن فى ضعف) تذكرى أنه وحده ، واذهبي إليـه .
(تسيتسيليه تخرج مندفعة)

لوتسيه : لن أتركك وحدك ، بل سأبقى معك .

شتيللا : لا ، يا لوتسيه . إن اردتى راحتى فأسرعى إلى هناك . اذهبي . اذهبي . دعيني أرتاح . لقد شلت أجنحة الحب ، ولن تحملني إليه . أما أنت فأنت شبابك وصحتك . والواجب يفرض نفسه حيث يسكت الحب . اذهبي إلى من أنت له . إنه أبوك . أتعرفين معنى هـذا ؟ اذهبي . إن كنت تحبينني وتريدين راحتى .
(لوتسيه تبتعد ببطء)

شتيللا (تهوى) : فأنا أموت وحدى .

حـول مسرحيـة «اخ واخت»

نشأت مسرحية «أخ وأخت» فى عام ١٧٧٦ بعـد أن فرغ جوته من مسرحيتى «كلاڤيجو» و «شتيللا»: وكان قد مضى عليه بعض الوقت فى ڤايمار. وعرف السيدة شارلوته فون شتاين، وأحبها، ولكنها كانت امرأة متزوجة. وأماً. وحاول جوته أن يجد قالباً يضع فيه هـذا الحب الذى كان متمسكاً به. لا يرى له غنى عنه. وكثيراً ما خطرت بباله كلمة الأخوة والحب الأخوى. ومن المؤكد أنه كان يتمنى، فى عقله الباطن أن تحدث المعجزة التى كثيراً ما يوردها الأدباء فى رواياتهم. فيكتشف المحب أن المرأة التى أحبها وظنها أخته، ليست أخته، وأن فى إمكانه أن يضع حبه فى إطاره الطبيعى.

بدأت علاقة جوته بالسيدة شارلوته فون شتاين بداية عجيبة، أشرت إليها فى مقدمة «نزوة العاشق والشركاء». عندما قام جوته فى عام ١٧٧٥ برحلة إلى سويسرا، مر فى طريق العـودة بمدينة شتراسبورج حيث زار الطبيب تسيمرمن. «ورأى جوته عند هـذا الطبيب صورة ظلية (سيلهويت) السيدة فون شتاين: فلفتت نظره وجذبت انتباهه إلى أن لقيها فى ڤايمار» وكتبت بعد ذلك أن السيدة فون شتاين (١٧٤٢ — ١٨٢٧) كانت فى الثالثة والثلاثين من عمرها عندما حل جوته (٢٦ سنة) ڤايمار، وأنها كانت وصيفة الأمير الأم أنا أماليا. «والمعتقد أن جوته ما كان ليبقى فى ڤايمار الفقيرة، لو لم تكن السيدة فون شتاين بها، تلك السيدة التى ارتبط بها برباط حب قوى، حتى قبل أن يراها».

«وفى ڤايمار التقى جوته بشارلوته فون شتاين التى رأى صورتها عند تسيمرمن، كما قلنا. وقد كتب تسيمرمن إلى السيدة فون شتاين، بعد زيارة جوته له، فى ٢٢ أكتوبر ١٧٧٥، خطاباً يقول فيه: «عرضت على جوته فى شتراسبورج صورتك الظلية، بين مائة من الصور الظلية الأخرى،

فكتب تحتها بخط يده : ما أروع أن يؤتى الإنسان حظ التطلع إلى العالم ، كيف ينعكس فى هـذه النفس ، إنها ترى العالم ، كما هو ، ولكن عن طريق الحب » . ونزل جوته ڤايمار ، وخلب الألباب بطلعته التى وصفها الشاعر ڤيلاند قائلا :

بعينين سوداوين

ساحرتين ، ممتلئتين بالنظرات الإلهية ،

قادرتين على القتل ، قادرتين على خلب الألباب ،

هكذا دخل بيننا ، عظيما ، رفيعاً .

ملكاً حقيقياً من ملوك الأرواح ،

ولم يسأل أحد : من هـذا ؟

فقد أحسسنا من النظرة الأولى أنه «هو» .

وفى يوم ١٧٧٦ كتبت السيدة فون شتاين إلى تسيمرمن تقول : « إن جوته يحدث هنا انقلاباً كبيراً . فإن استطاع أن يعيد النظام أيضاً ، كان فى ذلك خير لعبقريته . من المؤكد أن فكره طيب ، ولكن شبابه مسرف فى الضخامة ، وخبرته مسرفة فى الضآلة . — ولكن لننتظر النهاية » .

وكانت النهاية أن جوته أحبها حباً عارماً ، حير الألباب قديماً ، وما زال يحيرها إلى يومنا هـذا . وأعظم ما قاله عنها « أنها الوحيدة بين النساء ، التى صبت فى قلبى حـباً أسـعدنى . » كانت عندما رآها لأول مرة فى الثالثة والثلاثين من عمرها،وكان هو فى السادسة والعشرين ، كانت متزوجة منذ أحد عشر عاماً ، وكانت أماً لسبعة أولاد ، ولم تكن رائعة الجمال ، ولكنها كانت رشيقة القد ، ذات عينين واسعتين سوداوين ، وشعر فاحم ، وبشرة سمراء كبشرة أهل إيطاليا . كانت تجمع بين الرقة والصلابة ، وبين القلق والحكم الصائب . كانت امرأة ذات تأثير على الآخرين ، وذات إرادة

وعزم ، تعرف كيف تربط الآخرين إليها برباط كالقيد . كتبت إلى جوته تقول : « أصبحت الدنيا حبيبة إلى ، والفضل لك ، وكنت من قبلك قد سلخت نفسي عنها سلخاً . ولكن قلبي يلومني ، وأحس أنني أسبب لك ولنفسي العذاب . كنت منذ نصف عام مستعدة للموت ، أما الآن فقد تغيرت حالى . » وأحبت السيدة فون شتاين جوته حباً صادقاً تحركه رغبتها فى كبح جماحه ، ودفعه إلى مستقبله الصاعد ، حباً يجتهد فى أن يصفو وفى أن يتجرد من الأنانية . ولعل كلفها بكبح جماحه هو أهم ركن من أركان علاقتها به . ويبدو أن جوته أحس بأن هذا الأمر هو ما ينقصه ، وأيقن أن هذه المرأة هى الوحيدة القادرة عليه . فى ٦ مارس عام ١٧٧٦ كتبت السيدة فون شتاين إلى تسيمرمن تقول له : « قبل ساعات كان جوته عندى . وصارحته بأنى أتمنى لو استطاع أن يتخلص من جزء من تهوره ذلك الذى يجعل الناس هنا يسيئون تقديره » وتضيف بعد ذلك تفصيلات هامة قائلة : فى قلبي أشياء كثيرة كثرة عجيبة لابد أن يقولها لهذا « اللا إنسان » . ليس من الممكن أن يشق طريقه فى الدنيا بهذا السلوك .. » كتبت هذا الخطاب معجلة بعد زيارة جوته بساعات قلائل دليلا على عمق ما كان يجيش فى صدرها ، ولقد بذلت كل ما استطاعت أن تبذله من جهد عامر بالحب لتقوم معوجه . وعرف لها جوته فضلها . وظل حتى مات — على الرغم من تغير أحوالها معه فى بعض الأوقات — يذكر جميلها . وهذه الأبيات من قصيدة له كتبها إلى السيدة فون شتاين فى إبريل ١٧٧٦ توضح كوامن هذه العلاقة الفريدة :

لقد استطاعت قراءة مضمونى بنظرة واحدة ،

أنا الذى يشق على عيون البشر النفاذ إلى أعماقى .

صبت الاعتدال قطراً على دمى الساخن

وقومت مشية المتهور الضال .

وعاد الصدر المحطم إلى الهـدوء
بين ذراعى الملاك
. . .
أية سعادة تساوى تلك الساعات الناعمة
التى بقيت فيها مرتمياً إلى قدميك ، ممتناً لك .

ولقد مرت السنوات ، ولكن جرته ظل يطلب المزيد . فى ٨ مارس ١٧٨١ كتب إلى الصديقة : « أكملى حسناتك ، ودعى كل رباط للحب والصداقة والضرورة والعاطفة والعادة يربطنى بك برباط يزداد كل يوم وثوقاً » .

هذا ما كان من شأن جرته وشارلوته فون شتاين . علاقة أثمرت شعراً كثيراً عظيما ، وخبرة رائعة فى دراسة النفس الإنسانية ستظهر فى أعمال الفترة التالية ، وميلا إلى الاعتدال اتخذ فى الفن ما نستطيع أن نسميه بداية الكلاسيكية .

وهناك نص يرجع إلى عام ١٧٧٦ يقربنا من موضوع المسرحية . ونعنى به قصيدة من نوع Ode « الأوده» أرسلها إلى السيدة فون شتاين يقول لها فيها :
آه ، لقد كنت فى عصور مضت على الحياة وانقضت
أختى أو امرأتى .

تبين هـذه الكلمات أن موضوع المسرحية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بخبرة معينة فى حياته . وقد يختلف النقاد حول كيفية دخول هـذه المـادة إلى العمل الأدبى ، هل كان وليد تصميم وعمد ، أم أن العملية الإبداعية تتحرك بقوتها الذاتية وتمتص الكثير من العناصر . وليس من شك فى أن هـذه المسرحية عمل إبداعى خالص . دخلت فى هـذا العمل عناصر كثيرة منها العناصر الشخصية . وبخاصة العلاقة بالسيدة شارلوته فون شتاين (ولنذكر أن اسم شارلوته اتخذ مكانه فى المسرحية ، وأن ڤلهلم فيـه كثير من ملامح جوته ، بل إن جرته مثل دور ڤلهلم على مسرح الهواة فى ڤايمار) ، كذلك العلاقة بأخته كورنيليا التى يتحـدث عنها كثيراً فى الكتب الأولى من سيرته الذاتيـة « من حـياتى .. شعر وحقيقة » . كذلك دخلت فى

هذا العمل عناصر أخرى مثل اهتمامه بفكرة تنـــاسخ الأرواح ، وتصوره لما أسماه اقتباساً من الكيمياء « بالتبادلات المزدوجة » ، وتصورات من عالم « العاصفة والاندفاع » نجد فيها المرأة كائناً ملائكياً طيباً طيبة فطرية ، كأنها خرجت لتوها من رحم الطبيعة . وعـــناصر من التراث الأدبي منها ما أشار إليه فى متن المسرحية على لسان ماريانه ، وعـــناصر ذات طابع أخلاقى مثل الإحساس بالذنب وتوقع العقاب من القـــدر .

وتعتبر مسرحية« أخ وأخت » ذات الفصل الواحدنموذجاً رائعاً للعمل الدرامى القصير الذى خرج إلى الورق فى ساعات قليلة من التركيز الإبداعى ، والذى دارت أحداثه فى مكان محدود . فى سياق كأنه حوار أنشىء لاستخراج ما يعتمل فى حنايا النفس الإنسانية ، أو كأنه حديث ذاتى يفصح عن كل فكر عميق وإحساس صادق .

اخ واخــــت

مسرحية فى فصـــل واحــــدة

الأشخاص

ڤيلهلم	تاجر
ماريانه	أخته
فابريتسه	
ساعي البريد	



فيلهلم (يجلس إلى مكتب عليه سجلات تجارية وأوراق) : عميلان جديدان هــذا الأسبوع أيضاً . والإنسان عندما يجتهد يحقق دائماً شيئاً من الربح ، وقد يكون الربح قليلا ، ولكن الحصيلة النهائية تجعل من القليل كثيراً . والتاجر الذى يقــوم بعمليات صغيرة يسعد دائماً بالربح حتى إذا كان قليلا ، فإذا منى بخسارة كانت فى حدود يستطيع تحملها . بم أتيتنى ؟

(يدخل ساعى البريد)

ساعى البريد : برســـالة مثقلة ، تضم عشرين دوكاته(1) ، وعليك نصف دوكاته للبريد

فيلهلم : شئ جميل . جميل جــداً . اكتبه مع المبالغ الأخــرى .

(يخرج ساعى البريد)

فيلهلم (يتطلع إلى الرسالة) : لم أكن أريد طوال اليوم أن أحدث نفسى بأننى أنتظرها . لقد أصبح فى مقدورى الآن أن أدفع ما على لفابريتسه وألا أسترسل فى استغلال طيبته . لقد قال لى بالأمس غداً آت إليك . — فلم أرتح لذلك . ولقد كنت أعلم أنه لن يذكرنى بالدين . ولكن وجــوده كان سيذكرنى به على نحو مضاعف . (يفتح المظروف ويعد النقــود) فيما مضى من الزمان عندما كنت أمارس أعمالا أكثر تنوعاً ، كان الدائنون الصامتون أثقل الدائنين على نفسى . كنت أواجه الدائن الذى يلاحقنى ويحاصرنى .. بالوقاحة . وبكل ما يتصل بها من سلوك . أما الدائن الذى يلوذ بالصمت ، فكان ينفذ إلى قلبى ، ويطالبنى بإلحاح هو أشد أنواع الإلحاح ، لأنه كان يترك لى أنا أمر المطالبة . (يضم النقــود معاً على المكتب) . رباه . كيف أشكرك إذ أعنتنى على الخروج من المأزق .

---

(1) عملية ذهبية .

وتجدنى . (يتناول سجلا) إنك تمنحنى البركة بالقطاعى .
أنا أبدد نعمائك بالجملة . — وهكذا — هل يمكننى أن
أعبر بهذا التعبير ؟ — — إنك لا تفعل شيئاً من أجلى ؛
كما أننى لا أفعل شيئاً من أجلى . لو لم تكن الإنسانية الحلوة
الحبيبة هنا . لكنت أنا الآن أجلس إلى هذا المكتب وأراجع
الكسور ؟ — آه يا يا ماريانه . لو كنت تعلمين أن هذا
الذى تظنين أنه أخوك يعمل من أجلك بقلب مختلف تمام
الاختلاف ، وآمال غير ما تظنين من آمال . — ربما . آه .
ولكننى أحس بمرارة — فهى تحبنى — — على أنى أخوها . —
لا . أف . ولكن هذا الكلام يعود بالإنسان إلى الكفر ،
وما أتى الكفر يوماً بخير . — ماريانه . كم أكون سعيداً
لو كنت أنت القادمة . ماريانة .

(تدخل ماريانه)

ماريانة : ماذا تريد يا أخى ؟ لقد ناديتنى .

ڤلهلم : أنا ؟ لا . يا ماريانة .

ماريانة : هل يدفعك العبث إلى شدى من المطبخ شداً ؟

ڤلهلم : إنك ترين أشباحاً .

ماريانة : قد أرى أشباحاً . ولكننى أعرف صوتك يا ڤلهلم تمام المعرفة .

ڤلهلم : فماذا كنت تعملين فى الخارج ؟

ماريانة : لقد نتفت ريش بعض الحمام لأننى توقعت أن يأكل فابريتسه معنا مساء اليوم .

ڤيلهلم : ربما .

ماريانة : سأفرغ من إعداد الحمام بعد قليل . ولن يكون عليك بعد ذلك إلا أن تقول لى أريد الطعام . حتى أعد المائدة . أما هو فسيكون عليه فى هذا المساء أن يعلمنى أغنيته الحلوة .

ڤيلهلم : يبدو أنك تحبين أن تتعلمى منه شيئاً ؟

ماريانة : إنه يحسن تأدية الأغنيات الجميلة . — عندما نفرغ من تناول طعام العشاء ، وتجلس أنت إلى المائدة ، مائل الرأس . سأبدأ بالغناء ، فأنا أعلم عن يقين أنك تضحك عندما أبدأ بأغنية تحبها .

ڤيلهلم : هل لاحظت ذلك على ؟

ماريانة : وهل هناك مالا نلحظه ، نحن النساء ، عليكم أيها الرجال . — إذا لم تكن تريد منى الآن شيئاً . فسأنصرف ، لأن أمامى أعمالا مختلفة أريد أن أنجزها . — أعطنى قبلة .

ڤيلهلم : إذا وجدت أنك أحسنت شى الحمام فسأعطيك قبلة تكون الخاتمة الحلوة للوليمة .

ماريانه : ما أقبح أن يكون الأخ بهذه القسرة . إذا رغب فابريتسه أو أى شاب طيب آخر فى قبلة فإنه يتسلق من أجلها الحيطان وهذا هو السيد العظيم الجالس أمامى يحتقر القبلة التى أود أن أعطيه إياها . — الحمام سيحترق الآن . (تخرج)

ڤيلهلم : هذا الملاك . الملاك الحبيب . كيف أستطيع تمالك نفسى . فلا أطوقها بذراعى وأكشف لها عن كل شئ . — هل تنظرين إلينا ، أيتها السيدة القديسة ، يا من أعطيتنى هذا الكنز لأصونه ؟ — نعم ، إنهم فى عليائهم يعرفون أمورنا . أى شارلوته . لم يكن من الممكن أن تكافئى حتى بمكافأة

أعظم ولا أقدس من أن تأتمنيني على ابنتك وأنت تلفظين أنفاسك الأخيرة . لقد منحتني كل ما كنت بحاجة إليه ، ووصلتني بالحياة . فأحببتها من حيث هي ابنتك — أما الآن . — ما زلت أرى تهيؤات ، وأظن أنني أراك مرة أخرى ، وأن القدر قد أعطاك الحياة ، وقد رددت إلى الشباب ، إلى ، وإنني أستطيع أن أبقى منضما إليك ، وأن أعيش معك ، كما لم أستطع ، ولم يتح لى ، فى حلم الحياة الأول . — سعيد . سعيد أنا . امنحنى بركتك كلها ، يارب السماء .

(يدخل فابريتسه)

فابريتسه : مساء الخير .

ڤيلهلم : إننى سعيد جداً يا عزيزى فابريتسه . فقد حظيت فى هـذا المساء بالخير كل الخير . دعنا من حديث الأعمال الآن . هنا الثلاثمائة تالر المستحقة لك . دخلت الكيس لتوها . ويمكنك أن ترد إلى الصك عندما تتـاح لك الفرصة . لنتحادث الآن .

فابريتسه : إذا كنت لا تزال بحاجة إلى المبلغ .

ڤيلهلم : اذا احتجت إليـه مرة أخرى فسأطلبه — إننى ممتن لك دائماً — فخذه الآن إليك . — أما ما أريد منك أن تسمعه منى الآن ، فهو أن ذكرى شارلوته قد عاودتنى الليلة جديدة لا نهائية ممتلئة بالحياة ماثلة أمامى .

فابريتسه : هـذا ما يحدث لك كثيراً .

ڤيلهلم : لو أتيح لك أن تعرفها لفهمتنى . إننى أقول لك إنها كانت من أروع مخلوقات الله

فابريتسه : كانت أرملة عندما تعرفت إليها ؟

ڤيلهلم : طاهرة كل الطهر ؟ عظيمة كل العظمة ؟ لقد قرأت بالأمس خطاباً من خطاباتها . وأنت الإنسان الوحيد الذى اطلع على شىء من هــذه الخطابات . (يذهب إلى الكيس)

فابريتسه (لنفسه) : ليته يعفينى الآن من هــذا الحديث . فما أكثر ما سمعت منه القصة . وأنا أحب أن أنصت إلى كلامه لأنه يصدر عن القلب . ولكننى اليوم مشغول بأمور أخرى تماماً ، وأحب أن أبقيه رائق النفس معتدل المزاج .

ڤيلهلم : ترجع هــذه الرسالة إلى الأيام الأولى لتعارفنا ، كتبت تقول « هــذه هى الدنيا تعود فتصبح حبيبة إلى نفسى ، وكنت قد تخلصت منها وانصرفت عنها ، فأحببتها من أجلك . وقلبى يلومنى ، وأحس أنى أسبب لك ولنفسى العذاب . لقد كنت قبل نصف عام مستعدة للموت راضية به ، أما الآن فقد تغير موقفى منه ، ولم أعد راضية بالموت . »

فابريتسه : إنسانة حلوة الروح .

ڤيلهلم : لم تكن الأرض جديرة بها . كثيراً ما قلت لك يا فابريتسه ، كيف أصبحت بفضلها إنساناً آخر . لست أستطيع أن أصف لك الآلام التى كنت أعانيها فى ذلك الوقت ، عندما عدت إلى الدار ، وبددت ثروة الوالد . ولم يكن فى مقــدورى أن أتقدم إليها لمساعدتها على الصبر على ما ألم بها ، ولم يكن فى مقدورى أن أخفف عنها محنتها وأن أعينها على احتمالها . وأحسست للمرة الأولى بدافع يدفعنى إلى كسب دخل مناسب أقيم به أمور حياتى ، وإلى التخلص من الضنك الذى كنت أعيش فيه يوماً بعد يوم حياة كلها تعاسة . وعملت بجــد — ولكن أى نوع من العمل ؟ — وصمدت ، وبقيت على

هذا الحال عاماً عسيراً . ثم أشرق على شعاع من الأمل ، وزاد القليل بين يدى وربا . — وفجأة ماتت . فلم أستطع البقاء حيث كنت واحتمال الحياة . ليس فى مقدورك أن تتصور المعاناة التى عانيتها ، لم أعد أستطيع أن أرى المنطقة التى عشت فيها معها ، أو أبرح الأرض التى وسدت فيها . وكنت إلى قبيل وفاتها — (يستخرج رسالة من الكيس)

فابريتسه : إنها رسالة رائعة ، ولقد تلوتها على مؤخراً . — اسمع يا ڤيلهلم .

ڤيلهلم : لقد حفظتها عن ظهر قلب ، ولكنى لا أفتأ أقرأها . إننى عندما أرى خطها ، والورقة التى سكنت يدها عليها ذات مرة ، أخالها حاضرة معى . (يتناهى إلى الأسماع صوت طفل يصرخ) . يا لماريانة التى لا تستريح ؟ لقد عادت ترعى طفل الجيران . إنها تشغل نفسها به كل يوم ، وتزعجنى فى وقت غير مناسب . (يذهب إلى الباب) يا ماريانة . اهدئى مع الطفل ، أو أرسليه إلى ذويه إذا أساء السلوك . فلدينا ما نقوله . (يقف غارقاً فى الفكر)

فابريتسه : لا ينبغى عليك أن تعود مراراً إلى إثارة هذه الذكريات .

ڤيلهلم : هذه السطور . هذه السطور الأخيرة . إنها نسمة الوداع من الملاك الراحل . (يطبق الرسالة كما كانت) أنت على حق فيما قلت . إننى بما أفعله أرتكب إثماً . ما أندر الأحوال التى نكون فيها جديرين بالإحساس من جديد باللحظات الناعمة البائسة الماضية من حياتنا .

فابريتسه : إن قلبى مشغول دائماً بما جرى ويجرى عليك . لقد قصصت على أنها خلفت بعد موتها بنتاً ما لبثت أن لحقت بها . لو أن هذه البنت بقيت على قيد الحياة ، لكان لديك شىء تعلق عليه همومك وآمالك .

ڤيلهلم (يلتفت نحوه منفعلا) : إبنتها ؟ لقد كانت زهرة صغيرة رقيقة حلوة . سلمتها لى . ما أكثر ما فعل القدر بى . ليتنى أستطيع أن أحكى لك كل شىء .

فايريتسه : إذا شاء قلبك فافعل .

ڤيلهلم : ولم لا .

(ماريانه تدخل ومعها صبى صغير)

ماريانه : إنه يريد أن يقول لك تصبح على خير ، يا أخى . لا يصح أن تعبس فى وجهه ، أو فى وجهى . لقد كنت دائماً تقول إنك تود أن تتزوج وأن ترزق بأطفال كثيرين . والأولاد لا يمكن السيطرة عليهم حتى لا يصرخوا إلا فى الوقت الذى لا يزعجك فيه صراخهم .

ڤيلهلم : لو كانوا أولادى .

ماريانه : الأمر يختلف بطبيعة الحال .

ڤيلهلم : هل ترين هـذا الرأى يا ماريانه ؟

ماريانه : من المؤكد أن الإنسان يسعد كل السعادة إذا كانوا أولاده : (تنحنى على الصبى وتضمه إليها وتقبله) إننى أحب كريستل حباً شديداً . ليته كان ابنى . — إنه يعرف حروف الهجاء تعلمها على يدى .

ڤيلهلم : وتظنين أن ابنك سيستطيع القراءة بسرعة ؟

ماريانه : نعم . لأننى لن أفعل شيئاً طوال اليوم إلا الاهتمام به ، ألبسا الثياب ، وأخلعها عنه ، وأعلمه ، وأطعمه ، وأرعاه ، وأقوم بكل ما يتصل بتربيته .

فابريتسه : وزوجك ؟

ماريانه : سيكون عليه أن يشارك فى اللعب ، وسيحب الصبى مثلى تماماً . لابد أن يعود كريستل إلى البيت الآن ، إنه يستأذن فى الانصراف . (تأخذ الصبى إلى ڤلهلم) مد يدك الحلوة . يدك اليمنى اللذيذة التى تصفق بها .

فابريتسه (لنفسه) : إنها لطيفة جــداً ، لابد أن أعلن عن نيتى .

ماريانه (تأخذ الصبى إلى فابريتسه) : سلم على السيد أيضاً .

ڤلهلم (لنفسه) : ستكون لك . وأنت ستكون ... هــذا أكثر ممــا أستحق . (بصوت عال) أرسلى الصبى إلى أهله ، وتحدثى مع السيد فابريتسه حتى يحل موعد طعام العشاء . أما أنا فسأخرج لأتمشى ، فأقطع بعض الشوارع جيئة وذهاباً ، لأننى ظللت جالساً طوال النهار . (ماريانه تخرج) سأخرج إلى الهــواء الطلق تحت سماء تتلألأ بالنجوم ، فأتنسم نسمة واحدة طليقة . فقلبى مشحون بالانفعالات . وسأعود لتوى . (يخرج) .

فابريتسه(وحده): ضع نهاية للموضوع يا فابريتسه . فالموضوع لن يزداد نضوجاً إذا أطلت تقليبه فى نفسك ، وأنت قد اتخذت قرارك . وهو قرار طيب ، قرار عظيم . وسيكون فيه ما يعين أخاها على تحمل محنته . وهى — وهى لا تحبنى مثلما أحبها ، وهى لا تقدر على الحب العارم ، ولا ينبغى أن أطلب منها أن تحبنى حباً عارماً . — أيتها البنت الحبيبة . إنها لا تتوقع أن تكون أحاسيسى نحوها شيئاً آخر غير أحاسيس الصداقة والود . — إننا سنسعد معاً يا ماريانه . وهذه هى الفرصة قد سنحت ، وكأنما صنعتها بنفسى على هواى . لابد أن أصارحها بنواياى . وأنا على يقين من قلب أخيها ، وعسى ألا يرفضنى قلبها .

(ماريانه تدخل)

فابريتسه : هل بعثت بالصغير إلى ذويه ؟

ماريانه : كنت أتمنى أن أبقيه معي ، ولكني أعرف أن أخي لا يحب هـذا ، ولذلك فأنا لا أفعل . والصغير الشقي يتوسل أحياناً إلى أخي أن يسمح له بأن ينام معي .

فابريتسه : ألا يزعجك ؟

ماريانه : لا . إطلاقاً . إنه يعبث في عنف طوال النهار ، فإذا ذهبت إليه في فراشه وجـدته طيباً وديعاً كالحمل الصغير أو كالقطة الصغيرة المدللة . فهو يهش إلى ، وقد يصعب على أحياناً أن أحمله على النعاس .

فابريتسه (لنفسه) : ما أحلى سجاياها .

ماريانه : وهو يفضلني على أمه .

فابريتسه : فأنت أيضاً أم له .

ماريانه (تقف مستغرقة في الفكر)

فابريتسه (يتطلع إليها برهة) : هل تحزنين عندما تسمعين كلمة أم ؟

ماريانه : لا أحزن ، ولكنني أفكر

فابريتسه : فيم تفكرين يا حلوة ؟

ماريانه : أفكر .. لا أفكر في شيء . ولكنني أحس إحساساً عجيباً .

فابريتسه : ألم يحدث أن تمنيت ... ؟

ماريانه : ما بالك تسأل هـذه الأسئلة ؟

فابريتسه : أظن أن فابريتسه له الحق في أن يسأل ؟

ماريانه : لا لم يحدث قط أن تمنيت ... بل لو خطرت ببالي هـذه الفكرة مرة فإنها سرعان ما تتبدد . إنني لا أحتمل ، ولا أرى في مقدوري أن أترك أخي . مهما كان العرض مغرياً .

فابريتسه : هـــذا شئ عجيب حقاً . وهل إذا كنت تسكنين فى نفس المدينة التى يسكن فيها ، على مقربة منه ، تعتبرين هـــذا تركاً له ؟

ماريانه : لن أفعل هـــذا أبداً . ومن الذى يدبر أمر بيته ؟ من الذى يعنى به ؟ خادمة ؟ أو حتى زوجة ؟ — لا ، لا يمكن .

فابريتسه : ألا يمكن أن ينتقل معك إلى بيت الزوجية ؟ ألا يمكن أن يكون الزوج صديقا له ؟ أليس من الممكن أن يقيم ثلاثتكم فى بيت واحد ، فى ظل تدبير سعيد ، بل أكثر سعادة ، لأمور الحياة ؟ أليس من الممكن أن يؤدى هـــذا إلى التخفيف عن أخيك فى تحمل أعباء أعماله العسيرة ؟ ما أظن إلا أنها ستكون حياة رغدة .

ماريانه : قد تكون هـــذه فكرة صائبة . وأنا عندما أتدبرها أراها صحيحة . ثم ما ألبث أن أحس بأنها لا تستقيم .

فابريتسه : أنا لا أفهمك .

ماريانه : إذن فإليك ما أفعله . — إننى عندما أستيقظ من النوم أرهف السمع لأتبين هل صحا أخى أم لا . فإذا وجدت السكون مطبقاً ، أسرعت . فقفزت من الفراش إلى المطبخ ، وأوقدت النار ليغلى الماء على راحته حتى تستيقظ الخادمة ، فإذا ما فتح عينيه وجد القهـــوة أمامه .

فابريتسه : يا لك من ربة بيت رائعة .

ماريانه : ثم أجلس وأشتغل بالإبرة لأصنع له جوارباً ، وأقيسها عليه عشر مرات لأتأكد من أنها طويلة الطول المناسب . ومن أن سمانة ساقه مرتاحة فيها ، ومن أن القـــدم ليست مزنوقة ، حتى إنه يضيق بى أحياناً . وأنا لا أكثر من القياس من أجل القياس ، ولكننى أحب أن أكون مشغولة به ، وأن يرانى

عندما يكون قد عكف على الكتابة بضع ساعات ، فأنا حريصة على ألا يتملكه الاكتئاب . فهو يرتاح نفساً عندما يرانى ، وأنا أقرأ ذلك فى عينيه ، حتى إذا لم يصرح لى بما يشعر به . وربما ضحكت بينى وبين نفسى عليه وهو يصطنع الجد أو العبوس . ومن الخير أنه يصطنع هذا التعبير الجاد أو العابس ، وإلا أثقلت عليه طوال اليوم .

فابريتسه : فهو سعيد .

ماريانه : لا . أنا السعيدة . ولو لم يكن لى . لما عرفت ماذا أفعل فى حياتى . فى هذه الدنيا . وأنا أفعل كل ما فعله من أجلى أنا . ولكننى أشعر كأننى أفعله من أجله ، لأنى دائماً أفكر فيه عندما أفعل شيئاً لنفسى .

فابريتسه : وماذا يحدث لو فعلت ذلك من أجل زوجك ، لا شك أنه سيسعد كل السعادة . سيكون ممتناً كل الامتنان . وستتصل بالبيت حياة عائلية رغدة .

ماريانه : إنى أتخيل ذلك أحياناً ، وأحكى لنفسى حكاية طويلة عندما أخلص إلى نفسى ، أو أجلس إلى الغزل أو الحياطة ، حكاية أتمثل فيها الأمور كيف تكون عندما أتزوج أو كيف يمكن أن تكون . ثم ما ألبث أن أعود إلى أرض الحقيقة فأرى أن ذلك لا يمكن يتحقق .

فابريتسه : لماذا ؟

ماريانه : أين أجد الزوج الذى يرضى إذا قلت له « إننى أريد أن أحبك » ثم أضفت « ولكننى لا أستطيع أن أحبك أكثر من أخى الذى ينبغى أن يكون لى أن أفعل من أجله كل ما كنت أفعله حتى الآن » — آه ، وهكذا ترى أن هذا لا يمكن أن يتحقق .

فابريتسه : سيكون عليك إذ ذاك أن تفعلى من أجل زوجك جزءاً مما كنت تفعلين من أجل أخيك ، وأن تحولى الحب إليه .

ماريانه : هنا تكمن العقدة . فالحب لا ينصرف كالمال مرة إلى هذا الاتجاه ، ومرة أخرى إلى ذلك . ولا يغير المخدوم كل بضعة أشهر كما تفعل الخادمة الرديئة . وسيكون من الضرورى أن يتحقق للزوج ما تحقق هنا ، وما لا يمكن أن يتحقق مرة أخرى أبداً .

فابريتسه : هناك أشياء كثيرة تتحقق .

ماريانه : لا أعرف . عندما يجلس إلى المائدة ، ويسند يده إلى راحته ، ويغض الطرف ، ويغرق ساكناً فى همومه — أستطيع أن أتطلع إليه نصف ساعة بطولها . ولعلى أقول لنفسى إنه ليس جميل المحيا ، ولكنى أرتاح نفساً عندما أنظر إليه . وأنا بطبيعة الحال أشعر أنه إذ يهتم يهتم من أجلى ، هذا ما تعبر عنه نظرته الأولى عندما يرفع بصره ، وإنها لنظرة تحدث بى أثراً عظيما .

فابريتسة : كل شيء من أجلك يا ماريانه . والزوج يرعاك .

ماريانه : الأمور كلها تستوى عندى . وأنتم يا معشر الرجال تتقلبون مع الأهواء . كذلك قلبهم له أهواؤه ، وأنا لا أغضب منها . ولو صدرت عن غيره لما احتملتها . وقد ينقلب قلبهم فى أهواء صامتة . ولكننى أشعر بها أحياناً . وهو فى اللحظات النكراء عندما يرد إحساساً طيباً عطوفاً — يصدنى عما يحزننى ، ولكننى لا أحزن إلا لحظة عابرة بطبيعة الحال . وإذا أنا تبرمت به ، فلا يعنى ذلك أن حبى له قل ، بل يعنى أننى أدركت أنه لا يحس بحبى .

فابريتسه : فإذا كان هناك رجل يقبل المغامرة ، ويقـدم إليـك يده ؟

ماريانه : لا سبيل إلى العثور على مثل هـذا الرجل . وحتى إذا وجد، يظل السؤال قائماً ، هل سأقبل أنا المغامرة معه

فابريتسه : ولم لا ؟

ماريانه : لا سبيل إلى العثور عليه .

فابريتسه : بل هـو بين يديك يا ماريانه .

ماريانه : فابريتسه .

فابريتسه : إنك ترينه أمامك . هل ينبغي على أن ألقى خطابك طويلا ؟ هل أكشف لك كل ما ظل قلبي يخفيه طويلا ؟ إنني أحبك ، وأنت تعرفين هـذا منذ أمد بعيد . وأنا أقدم إليك يدى ، وهـذا شيء لم تحسبي حسابه . لم أر من قبل بنتاً لا تدرك مثلك المشاعر التي تثيرها في الإنسان الذي ينظر إليها . — وما الذي يتحدث إليك يا ماريانه بالحبيب الملتهب المشاعر ، المندفع عن غير تدبر . أنا أعرفك . ولقد اختبرتك ، وبيتى مهيأ لاستقبالك — هل تقبلين أن تكونى زوجـتى ؟ لقد شهدت في الحب مقادير ومقادير ، وقررت أكثر من مرة أن أظل حتى الموت أعزب . أنا الآن ملك يمينك ؛ فلا تتمنعى . وأنت تعرفيننى ، فأنا صورة طبق الأصل من أخيك . ولا يمكنك أن تتصورى رباطاً أكثر طهراً يربطك بإنسان — افتحى قلبك . وقولى لى كلمة .

ماريانه : يا عزيزى فابريتسه ، امنحنى بعض الوقت . وأنا على خير معك .

فابريتسه : قولى ، إنك تحبيننى . وسأترك لأخيك مكانه . ونيتى أن أكون أخاً لأخيك . وأن نتعاون معاً على الاهتمام به . فإذا

انضمت ثروتى إلى ثروته تجـاوز ساعات المعاناة ، وزاد شجاعة ، واستطاع — أنا لا أريد يا ماريانه أن أغريك — (تمسك يدها) .

ماريانه : لم يخطر ببالى قط يا فابريتسه . . إنك تسبب لى الحـيرة .

فابريتسه : كلمة واحدة . هل يحق لى أن أعقد الآمال ؟

ماريانه : تحدث إلى أخى .

فابريتسه (يركع) : يا أيها الملاك . يا أحب حبيبة .

ماريانه (تظل ساكنة لحظة) : رباه . ماذا قلت . (تخرج)

فابريتسه : إنها لك . — — — فى مقدورى أن أسمح لهذه المجنونة الصغيرة الحبيبة بالتعلق بأخيها . وسيتطور الأمر شيئاً فشيئاً عندما نعرف بعضنا البعض على نحو أفضل ، ولن يخسر هو شيئاً . إنى أجد الراحة فى أن أحب هـذا النوع من الحب ، وأن تحبنى امرأة على هـذا النحو . وتلك قضية لهـا مذاقها الذى يحلو للإنسان. نريد أن نسكن معاً . ولقد كنت دائماً — بغض النظر عن الزواج — أحب أن أوسع على الإنسان الطيب بيته ، فلن يكون هناك بأس عندما أتيح له ذلك زوجاً لأخته . فإنه لو ترك على حاله مع ذكرياته الأبدية . وهمومه وأسراره ومشكلات حياته لازداد اكتئاباً . سيكون كل شيء جميلا . وسيتاح له أن يتنسم هـواء أكثر إنطلاقاً . ستنال البنت زوجاً — وليس هـذا بالشيء الهين — وستنال أنت زوجة تشرف بها — وهـذا كثير .

(ڤيلهلم يدخل)

فابريتسه : هل فرغت من نزهتك ؟

ڤيلهلم : ذهبت في اتجاه السوق وحارة الأبروشية ، وعدت عن

طريق البورصة . إننى أحس إحساساً عجيباً عندما أسير ليلا خلال المدينة . أرى جانباً قد ارتاح من عمل اليوم وخلد إلى السكون ، وجانباً يسرع الخطى إلى حيث السكون والراحة ، إلا أصحاب الحرف الصغيرة أراهم فى حـــركة ونشاط . ولقد سعدت بالتطلع إلى إمرأة عجوز تبيع الجبن ، كانت تلبس نظارة تنحدر على أنفها ، وتقطع قطعاً متتالية من الجبن فى ضوء بقية من شمعة ، وتضعها على المـــيزان حتى يكتمل ما طلبته الزبونة .

فابريتسه : كل إنسان يلاحظ الأشياء التى تتفق مع طبيعته . وما أظن إلا أن الكثيرين ساروا فى الطريق دون أن ينظـــروا إلى بائعات الجبن والنظارات التى تنحـــدر على أنوفهن .

ڤيلهلم : الإنسان يحب الأشياء التى يمارسها ، وأنا أقدر صغار التجار منذ أن عرفت الجهد الجهيد الذى يبذله البائع حتى يجمـــع الريال قرشاً قرشاً . (يقف ساكناً برهة غارقاً فى الفـــكر) لقد تملكتنى حال عجيبة فى أثناء الطريق ، وخطرت ببالى أمور كثيرة مختلفة متداخلة مضطربة دفعة واحدة — أما ما يشغلنى فى أعمق أعماق روحى — (يغرق فى التفكير)

فابريتسه (لنفسه) : غريب هذا الذى يحدث لى ، ما إن أراه حاضراً أمامى حتى ينعقد لسانى ، فلا أستطيع الإفصاح عن حبى لماريانه . — ولكن ينبغى على أن أقص عليه ما قد حدث. (بصوت عال) قل لى ياڤيلهلم . لقد كنت تريد أن تترك هذا المسكن إلى مسكن آخـــر ، فهـــو قليل الحجـــرات مرتفع الأجر . هل تعرف لك مسكناً آخر ؟

ڤيلهلم (مشتت الفكر) : لا .

فابريتسه : لقد فكرت فى حل يسهل الأمور علينا جميعاً . فأنا أمتلك البيت

الذى ورثته عن أبى . ولا أسكن إلا فى الطابق العلوى ،
ويمكنك أن تشغل الطابق الأسفل . فأنت لا تنوى الزواج
عما قريب . — وسيكون لك فناء ، ووكالة صغيرة لتجارتك ؛
وستدفع لى إيجاراً بسيطاً ، وبهذا يعين الواحد منا صاحبه .

ڤيلهلم : إنك طيب جداً . لقد خطر ببالى فعلا فى بعض الأحيان عندما
كنت آتى إليك ، وأرى مكاناً كثيراً خالياً لديك ، بينما أضطر
أنا إلى تدبير أمــورى فى العسر والضيق . — ثم هنــاك
أمور أخرى ... فلنترك هذا الموضوع فلا سبيل إلى تحقيقه .

ڤابريتسه : لماذا ؟

ڤيلهلم : لنفـــترض أننى تزوجت ؟

ڤابريتسه : هــذا أمر يمكن تدبيره . فإذا كنت وأنت أعزب ستجد
مكاناً كافياً ، فإنك ستجد مكاناً كافياً كذلك إذا كنت مع
زوجة .

ڤيلهلم (مبتسما) : وأختى ؟

ڤابريتسه : آخذها أيضاً إلى دارى .

ڤيلهلم (ساكتاً)

ڤابريتسه : لندع موضوع السكن جانباً . ولنتكلم كلمة عقل . —
إننى أحب ماريانه . فامنحنيها زوجة .

ڤيلهلم : كيف ذلك ؟

ڤابريتسه : ولم لا ؟ اعطنى كلمتك . استمع إلى يا أخى . إننى أحب
ماريانة . ولقد فكرت طويلا ، هى وحيـــدة ، وأنت وحيد .
فأنتما معاً يمكنكما أن تسعدانى سعادة لم أنلها من قبل فى الدنيا .
اعطنيها . اعطنى إياها .

ڤيلهلم (مضطرباً) : أنت لا تعرف ماذا تريد .

فابريتسه : آه ، بل أعرف ما أريد كل المعرفة . هل ينبغي على أن أحكى عن كل ما ينقصنى ، وما سأناله عندما تكون هى زوجتى وتكون أنت أخا لزوجتى ؟

ڤيلهلم (يخرج عن أفكاره هائجاً منفعلا) : هــذا محال . محال .

فابريتسه : ماذا بك ؟ — إننى أتألم . إننى أجد فى مسلكك تجاهى بشاعة . إذا كانت أختك ستتزوج يوماً ما ، آجلا أو عاجلا ، فلماذا لا أكون أنا هــذا الزوج ؟ أنا الذى تعرفنى ، وتحبنى ؟ على الأقل كنت أعتقد ذلك .

ڤيلهلم : دعنى . — أنا لست فى عقلى .

فابريتسه : لابد أن أقول كل ما أريد قوله . إن مصيرى رهن بك وحدك . إن قلبها ميال إلى ، ولابد أنك لاحظت هــذا . وهى تحبك أكثر منى ، ولكننى راض بذلك . وأنا أعلم أنها فى المستقبل ستحب الزوج أكثر من الأخ . وسأدخل أنا فى حقوقك . وأنت فى حقوقى ، وسنسعد جميعاً كل السعادة . إننى لم أر من قبل عقدة تنعقد إنسانياً على نحــو أجمل من هــذا .

ڤيلهلم (يصمت)

فابريتسه : فلنوثق الرباط ، أيها الأعز ، وامنحنى كلمتك ، موافقتك . قل لهــا إنك تفرح لذلك وتسعد به . وأنا قد حصلت على كلمتها .

ڤيلهلم : كلمتها ؟

فابريتسه : ألقت بها إلقاء ، كما تلقى نظرة فارقة ، تعبر أكثر من كل بقاء . جميلا كان اضطرابها ، رحبها ، وقرارها وارتعادها .

ڤيلهلم : لا . لا .

فابريتسه : أنا لا أفهمك . إننى أشعر أنك لا تنفر منى ، ولكنك تقف فى سبيلى .. لا تسلك معى هـذا السلوك . لا تقف فى سبيل سعادتها وسعادتى . — إننى ما زلت أرى أنه ينبغى عليك أن تسعد معنا . لا تمنع عن آمالى كلمتك ، كلمة الموافقـة المفعمة بالود الخالص .

ڤيلهلم (صامت فى عذاب مختلط)

فابريتسة : أنا لا أفهمك .

ڤيلهلم : هى ؟ — أنت تريدها هى ؟ —

فابريتسه : وما الغريب فى ذلك ؟

ڤيلهلم : وهى تريدك ؟

فابريتسه : لقد أجابت الإجابة التى تليق بالبنت .

ڤيلهلم : هكذا . هكذا . — ماريانه . — لقد حدثتنى نفسى بذلك . لقد أحسست به .

فابريتسه : لكن قل لى —

ڤيلهلم : ماذا أقـول — إذن فقد كان هذا هو ما أطبـق على نفسى هـذا المساء كالسحابة الصفيقة المشحونة ، ثم ما هى إلا انتفاضه . فتنقض الصاعقة . — — خذها . — خذها . خذ الشيء الوحيد الذى بقى لدى . خذ كل ما أوتيت .

فابريتسه (ينظر إليه صامتاً)

ڤيلهلم : خذها ، لكن اعلم ماذا تأخذ منى — (فترة . يتمالك نفسه) لقد قصصت عليك قصة شارلوته ، الملاك الذى ضاع من بين يدى . وتركت لى صورة طبق الأصل منه ، تركت لى شارلوته ابنتها — — هـذه الابنة لم تمت — لقد كذبت عليك — — هـذه الابنة هى ماريانه . — ماريانه ليست أختى .

فابريتسة : هـــذا ما لم أكن أتوقعه .

ڤيلهلم : وكان الأحرى بى أن أخشى أن تفعل ما فعلته . — لماذا لم أتبع قلبى وأقفل بيتى فى وجهك . كما قفلته فى وجه كل إنسان فى الأيام الأولى عندما أتيت إلى هـــنا ؟ لقد سمحت لك أنت وحدك بأن تدخل إلى هذا المعبد المقدس . واستطعت أنت أن تخدرنى بالطيبة والصـــداقة والمساعدة والتظاهر الكاذب بالبرود حيـــال النساء . وكما كنت أنا أتظاهر بأنى أخوها . فقد اعتقدت أن مشاعرك نحوهـــا مشاعر الأخوة الصادقة . وكنت إذا ساورنى الشك أحياناً . أرده وأعتبره شيئاً لا نبل فيه . وكنت أعتبر تلطفها معك تعبيراً عن قلبها الملائكى الذى ينظر إلى الدنيا كلها نظرة ملؤها الحب . — أما أنت . وأما هى .

فابريتسه : لا أحب أن أسمع المزيد . وليس لدى ما أقوله . وداعاً . (يخرج)

ڤيلهلم : اذهب . — إنك تأخذه كله معك . النعيم كله . لقد تقطعت — أسباب حياتى و تحطمت كل آمالى . أوثق أخلص آمالى ، مرة واحدة ، وهوت فى هوة سحيقة . سقط الجسر الذهبى الذى كان المفروض أن يصعد بى إلى نعيم جنات عالية .. ضاع كل شيء ، ضيعة آه الخائن الذى أساء استغلال صراحتى وثقتى — — . آه يا ڤيلهلم . يا ڤيلهلم . يا أيهـــا القـــدر المنتقم . إنك تنوء ثقيلا فوقى ، وإنك لعادل فى انتقامك . — لماذا تقفين هنا . أنت ؟ وأنت ؟ فى هـــذه اللحظة بالذات . سامحنى . ألم أتعذب تكفيراً عما فعلته بكن . سامحنى . لقد مضى على ذلك وقت طويل . ولكننى عانيت وتعذبت عذاباً لا نهاية له . لقد تظاهرت بأننى أحبكن . بل ظننت أننى أحبكن .

لقد تقربت إليكن بأنواع من التملق الحمقاء ، استلمت بها قلوبكن ، ثم تسببت لكن فى التعاسة . سامحننى ، وانصرفن عنى . — هل قدر على أن أعاقب على هــذا النحو ؟ هل قدر على أن أفقد ماريانه ؟ أفقد آخر آمالى . ومحط اهتمامى ؟ هذا محال . محال . (يظل ساكناً)

(ماريانه تدخل)

ماريانه (تقــترب حائرة) : أخى .

ڤلهلم : آه .

ماريانه : أخى الحبيب ، لابد أن تسامحنى . أتوسل إليك بكل عزيز لديك . أنت غاضب . هــذا ما توقعته . لقد ارتكبت حماقة — وأنا فى حال لا أحسد عليها .

ڤلهلم (يتمالك نفسه) : ماذا بك يا بنت ؟

ماريانه : ليتنى أستطيع أن أحكى لك . ولكن الأفكار تضطرب فى رأسى . — فابريتسه يريد أن يتزوجنى ، وأنا —

ڤلهلم (فى شىء من المرارة) : قولى بصراحة . أنك وافقت ؟

ماريانه : لا . مطلقاً . لن أتزوجه أبداً . لا يمكن أن أتزوجه .

ڤلهلم : هــذا كلام مختلف .

ماريانه : شىء غريب . إنك قاس كل القسوة يا أخى . ولقد كنت أفضل أن أذهب وأن أنتظر حتى تصفو ، ولكنى أريد أن أتخلص مما يثقل قلبى —— أقول لك كلمتى النهائية التى لا رجعة فيها : لا يمكن أن أتزوج فابريتسه .

ڤلهلم (ينهض ويمسك يدها) : ماذا قلت يا ماريانه ؟

ماريانه : كان فابريتسه هنا ، وتكلم فأكثر الكلام ، وصور لى أموراً كثيرة ، وما زال يتكلم حتى تخيلت أن الزواج به ممــكن .

ولقد ألح على . حتى قلت له فى عجلة دون ما تدبر .
إن عليه أن يتكلم معك . فاعتبر مقالتى موافقــة ، وأحسست
أنا فى نفس اللحظة أن هــذا الزواج لا يمكن أن يكون .

ڤيلهلم : وهــو قد تحدث معى .

ماريانة : أتوسل إليك بكل ما أستطيع ،بكل الحب الذى أحس به
نحوك ، وبكل الحب الذى تحس به نحوى ، أن تصلح الأمر .
وأن تفهمه .

ڤيلهلم (لنفسه) : رباه .

ماريانة : لا ينبغى أن تغضب . وما ينبغى أن يغضب هو كذلك .
إنما نريد أن نعيش كما كنا نعيش من قبل ، وأن تستمر حياتنا
كما كانت إلى الأبد . — فأنا لا أستطيع الحياة إلا معك ،
ولا أحب أن أعيش إلا معك . هــذه حقيقة تكمن فى روحى
منذ الأزل ، ولقد أخرجتها هــذه الواقعة إلى النور ،
أخرجتها فى عنف وشراسة — أنا لا أحب سواك .

ڤيلهلم : ماريانة .

ماريانه : أيها الأخ الأعز . لا أستطيع أن أقول لك عما جاش فى قلبى
طوال ربع الساعة المنقضى . — لقد أحسست بما أحسست به
مؤخراً عندما حدث حــريق فى السوق ، وانتشر الدخان
والبخار فى كل المكان ، ثم نسفت النار السقف ، وغرق البيت
كله فى شعلة واحدة . — لا تتركنى . لا تتخل عنى يا أخى .

ڤيلهلم : ولكن هــذه الحال لا يمكن أن تستمر على هــذا النحو .

ماريانة : وهــذا هو ما يخيفنى أشد الخوف . وأنا أعدك بنفس راضية
أننى لن أتزوج ، وأننى سأرعاك دائماً دائماً ، إلى الأبد .
هناك فى تلك الناحية يسكن شيخــان : أخ وأخت ،

تقلمت بهما السن ، وتجعدت بشرتهما وعجفت ، وأنا أفكر فيهما أحياناً ، وأقول فى نفسى : عندماتكونين عجوزاً عجفاء مثلهما ، بل عندما تصبحين أنت و هو شيخين ، وتكونان معاً .

ڤيلهلم (يضع يده على قلبه ويقــول وكأنه يحدث نفسه) : فإذا احتملت هذا ألن يأتى وقت تضيقين به .

ماريانة : فأنت إذن غير مرتاح لهــذه الحياة ، ولعلك بمرور الوقت تتخذ زوجة ، ولسوف أضيق بهــا ، حتى لو اجتهدت فى أن أحبها — لن يحبك إنسان حبى لك . لا يمكن أن يحبك إنسان مثلما أحبك .

ڤيلهلم (يحاول أن يتكلم)

ماريانة : إنك متحفظ دائماً ، ولقد كنت أتهيأ المرة تلو المرة لأقــول لك بوضوح عما أحس به ، ولكننى لم أكن أجرؤ . وأحمد الله أن المصادفة حلت عقدة لسانى .

ڤيلهلم : كفى يا ماريانة .

ماريانة : لا تمنعنى ، دعنى أقول كل ما عندى ، وعند ذاك سأذهب إلى المطبخ وأجلس أياماً إلى عملى ،وأتطلع إليك من حين لحين وكأنما أريد أن أقول لك : إنك تعرف الحقيقة.

ڤيلهلم (يصمت من فرط الإبتهاج)

ماريانة : ولقد أتيح لك أن تعرفها ، وأنت تعرفها منذ وفاة أمنا ، وكيف شببت عن الطوق ، وكنت دائماً معك . — إننى أجد متعة فى البقاء معك ، امتنانا منى لعنايتك ، وإنها لتفوق العناية الأخوية . ولقــد ملكت على فؤادى كله ، وعقلى كله ، شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح الآن من العسير على أى شىء آخر أن يجد فيهما مكاناً صغيراً . ولا زلت أذكر أنك كنت تضحك

أحياناً عندما كنت أقرأ روايات ، ولقد حــدث لى مرة عندما كنت أقرأ رواية چولى ماندڤيل (*) ، أننى سألتك عن هاينرش — أو ماذا كان اسمه بالضبط — هل كان يشبهك . — فضحكت . ولم يعجبنى منك أنك ضحكت . ولهــذا كنت بعد ذلك ألوذ بالصمت . ولقد كنت جادة فى سؤالى كل الجــد ، لأن أحب الناس وأفضلهم كانوا فى تصورى يشبهونك . كنت أتصورك تتنزه فى الحــدائق الفسيحة ، وتركب الخيل ، وتقوم بالرحلات وتتبارز——— (تضحك فيما بينها وبين نفسها) .

ڤيلهلم : ماذا بك ؟

ماريانة : دعنى أعترف بالمزيد : عندما كنت أطالع فى الروايات عن فتاة جميلة وطيبة ، أحبها حبيب ، وهامت به ، كنت أتصور أننى هى . — وأظل أنا هى حتى تصل الأحداث إلى حيث تتغلب على العقبات وتتزوج ——فى هــذا الموضع كنا نفترق . أما ترى أننى بنت ثرثارة طيبة القلب ، صادقة الطوية ؟

ڤيلهلم : استمرى . (مشيحا بوجهه) لابد أن أشرب كأس البهجة كلها . رباه احفظ على عقلى .

ماريانة : أما الشئ الذى لم أكن أسيغه فى الموضوعات الكثيرة التى تحكيها الروايات ، فالحديث عن اثنين يتحابان ثم يتبين أنهما أقرباء أو أنهما أخ وأخت—ولكم تمنيت أن أحرق (ميس فانى) ولكم بكيت . إنها قصة تقطع القلب(**) بما يحدثه القدر فى أبطالها . (تتجه إلى الخلف وتبكى بكاء مراً)

(*) ظهرت الترجمة الالمانية لرواية بروك المسماة « ليدى جوليا مانديفيل » فى عام ١٧٦٤ .

(**) المقصود قصة ميس فانى ويلكس ليوهــان تيموتيوس هرمس ، صدرت فى عام ١٧٦٦ .

ڤيلهلم (يهب واقفاً ويندفع نحوها ويعانقها) : ماريانة . حبيبتى ماريانة .

ماريانة : ڤيلهلم . لا . لا . لن أتركك أبداً . أنت لى . وسأمسكك ولن أدعك تفلت منى .

(فابريتسة يدخل)

ماريانه : هه ، يا فابريتسة . إنك تأتى فى الوقت المناسب . فقلبى الآن قوى جرىء صريح ، وسيجعلنى أقول لك الحقيقة . أنا لم أعطك موافقتى . أنت صديقنا فحسب . أما أن أتزوجك فضرب من المحال .

فابريتسه (ببرود ومرارة) : هـــذا ما فكرت فيه يا ڤيلهلم . عندما تضع ثقلك كله فى كفة الميزان ، فإن وزنى يلوح خفيفاً كل الخفة . وأنا إنما أعود لكى أفرغ قلبى ممـــا ينبغى أن يفرغ منه . إننى أتخلى عن مطالبى كلها ، وأرى أن الأمور قد سارت طريقها ، ويسعدنى أننى قد أتحت لهـــا الفرصة عن غير قصد .

ڤيلهلم : لا تتحدث بحديث الكذب فى هـــذه اللحظة ، ولا تستأثر لنفسك دون ما حق بعاطفة ما كنت لتنالها لو طوفت فى ربوع الدنيا قاطبة . ها هى ذى الإنسانة — ملك يمينى — وهى لا تعرف .

فابريتسه (فى شىء من التهكم) : وهى لا تعرف ؟

ماريانة : ما هذا الذى لا أعرفه ؟

ڤيلهلم : هل نكذب هنا يا فابريتسه ؟

فابريتسه (مجروحاً) : إنها لا تعرف ؟

ڤيلهلم : هـــذا ما قلته .

فابريتسه : ابقيا بعضكما لبعض فكل منكما جدير بالآخر .

ماريانة : ما هـــذا الكلام ؟

ڤيلهلم (يعانقها) : أنت لى يا ماريانة .

ماريانة : رباه . ما هذا . هل لى أن أرد هـذه القبلة ؟ — ما معنى هذه القبلة ؟

ڤيلهلم : إنها ليست قبلة الأخ المتحفظ الذى يتصرف فى فتور ، بل هى قبلة المحب المخلص الوحيد السعيد إلى الأبد . (يركع عند قدميها) أنت لست أختى . لقد كانت شارلوته أمك ، ولم تكن أمى .

ماريانه : أنا ؟ أنا ؟

ڤيلهلم : حبيبك . — ومن هـذه اللحظة زوجك ، إلا أن تترفعى عليه .

ماريانة : قلى لى ، كيف أمكن ذلك ؟

فابريتسه : انعموا بما أعطاكم الله إياه ، وما لا يعطيه إلا مرة واحدة .

اقبلى يا ماريانة ، ولا تسألى . — سيكون لديكما من الوقت ما يكفى لتوضيح كل شىء .

ماريانة (تنظر إليـه) : لا . ليس هـذا ممـكناً .

ڤيلهلم : حبيبتى . زوجتى .

ماريانة (تعانقه) : ڤيلهلم ، ليس هـذا ممـكناً .

حول مسرحية « بروميتيوس »

نشأت هـذه المسرحية التى لم تكتمل فى عام ١٧٧٣ ، فى قلب عصر العاصفة والاندفاع ، معبرة عن الفردية الخلاقة العنيفة التى اتسمت باسم التيتانية ، نسبة إلى قبيلة من الآلهـة عند الإغريق اقـدامى . وتصور مسرحية جوته پروميثيوس الذى صنع بشراً من الطين ، وعارض الآلهة وبخاصة زيوس أو يوبتر — چوبتر — كبير الآلهـة . وپروميثيوس يرفض العرض الذى حمله إليـه مركور ليعود إلى الوفاق مع الآلهـة ، ويرفض حديث أخيه إپيميتيوس الذى يحضه على العودة إلى حظـيرة الآلهـة ، ويفضل أن يسير فى طريقه . طريق العمل الخلاق الفعال . وتعينه مينرفا ، إبنه يوبتر على بث الروح فى كائناته الجـامدة . ويحيط پروميثيوس البشر بالنصح والتوجيـه ويعلمهم ممايعلم ، بل يعلم المرأة — پاندورـ معنى الحب ، وهو فى رأيه صنو الموت .

اعتمد جوته ، كما بين البحث العلمى ، على كتابات سابقة استقى منها العناصر التى استخدمها فى صياغة فكرته . من هـذه الكتابات ، نص بعنوان « إسهامات فى التاريخ السرى لقلب الإنسان وعقله » يرجع إلى عام ١٧٧٠ يتضمن حواراً فى المنام بين كاتب النص ، وهو الأديب المعروف ڤيلاند . وپروميتيوس . فى هـذا الحوار يصف پروميثيوس الكائنات التى صنعها من الطين بيديه بأنها جنس من البشر لم يفسد بعد . ومن هـذه الكتابات أيضاً معجم الأساطير لهيدريش الذى تضمن بيانات ومعلومات من بينها أن پروميتيوس هـو الذى صنع پاندورا ، وأن مينرفا أعانت پروميتيوس على بث الروح فى خلائقـه .

ومادة بروميتيوس مادة قديمة فى تاريخ الأسطورة ، ثم فى التاريخ الأدبى بعد ذلك . وأقدم إشارة إلى پروميثيوس جاءت فى « تيوجونيا » من أعمال هيزيود (حول عام ٧٠٠ قبل ميلاد المسيح) . ويصوره هيزيود فى صورة المتمرد الذى خرج على زيوس — كبير الآلهة — ورد للإنسان النار التى كان زيوس قد حجبها عنه . وهـكذا فإن پروميتيوس يعتبر صـاحب

فضل على الإنسان حيث مكنه من النار — التى قد تعنى الحكمة — وساعده على السير فى مدارج الحضارة . ولقد غضب زيوس عليه ، وأرسل إليه المرأة پاندورا لتورده موارد الهلاك ، ثم كلف هيفايستوس بأن يربطه برباط من حديد إلى صخرة فى القوقاز وأمر نسراً بأن ينهش كبده بالنهار ، فإذا جن الليل تركه ، فتنمو الكبد من جديد ، ويعود النسر إلى النهش فى اليوم التالى . وپروميثيوس يعرف أن خطراً يتهدد الآلهة ، ولكنه يصبر ، ولا يكشف عما أحاط به من علم مهما يحدث له . ولقد هوت به الصخرة إلى أعماق التارتاروس ، الهوة السحيقة فى العالم السفلى . ثم تمضى السنين بالمئات بل بالآلاف ، حتى يتحقق الوفاق بين پروميثيوس وزيوس ، ويقتل هرقل النسر ، ويأتى خيرون فيحمل عن پروميثيوس العذاب .

أما الصورة التى رسمتها الشاعرة الإغريقية القديمة إيرينا (حول ٤٠٠ قبل الميلاد) لپروميثيوس ، فتبينه على أنه صنع بشراً من طين ، وتجعل له أخا هو إپيميثيوس . أما الشاعر المسرحى الإغريقى إسخيلوس فقد كتب ثلاث مسرحيات عن پروميثيوس فى مراحل حياته الثلاث : مرحلة التمرد ومرحلة الأسر ومرحلة التحرر . ولم تصل إلينا إلا المسرحية الوسطى عن بروميثيوس مغلولا ، وفيها پروميثيوس يتمرد على زيوس ، ويسرق النار ، ويتصدى لحكم زيوس على التنانين والبشر بالفناء . وهناك صورة ثالثة لپروميثيوس رسمها لوكيانوس — من القرن الثانى بعد الميلاد — فى حوار بعنوان « پروميثيوس أو القوقاز » يتحدث بروميثيوس فيه عن العمل الذى قام به من أجل خير البشر ، فهو قد صنعهم لأن الآلهة بحاجة إليهم ، ولكن الآلهة لن ترضى عنهم لأنهم من خلقته وليسوا من خلقهم .

وإذا كان تراث العصر الوسيط قد احتار فى پروميثيوس ، فقد عاد كتاب عصر النهضة إلى التفكير فى هذه الشخصية الأسطورية . وفهم بوكاتشو النار على أنها نور الحكمة ، وجعل پرومثيوس المعلم الأول الذى علم البشر الفنون والعلوم . كذلك ظهرت فى عصر النهضة فكرة كفاح الإنسان من أجل التطور

على مدارج الفن والإبداع ، وكيف أن هـذا الكفاح يصطدم بحاجز يتمثل فى عجز الإنسان ، فما هو إلا كائن محدود الإمكانية . كذلك ظهرت فكرة السعى إلى الحقيقة الكاملة ، والعجز عن بلوغها . ودخلت فى مادة پروميثيوس عناصر من الفكر الدينى المسيحى .

فلما خرج روسو على الناس فى القـرن الثامن عشر بفلسفته عن الفطرة والحضارة ، وكيف أن إنسان الفطرة كان أحسن حالا من إنسان الحضارة ، تحولت مادة پروميثيوس إلى مشكلة : فإذا كان پروميثيوس هو الذى قاد خطى الإنسان إلى الحضارة ، فمعنى ذلك أنه سار بهم إلى محنتهم . كذلك ظهرت فى المعالجات المختلفة مشكلة العلاقة بين البشر والآلهـة ، ثم ظهرت مشكلة التفرد الإنسانى وبخاصة تفرد الإنسان الفنان .

تلقف جوته مادة پروميثيوس محملة بكل هـذه المعانى ، فأعجبه خاصة التعبير عن العزلة التى يضطر إليها الإنسان الفنان . وقد تحدث جوته فى سيرته الذاتية « من حياتى .. شعر وحقيقة » عن قدر الإنسان ، وبخاصة الإنسان الذى تنمو ملكاته الروحية قبل الآخرين . وعلى نحو أكثر اتساعاً منهم ، فهو قد ينشأ فى رعاية الأهل والأقارب وقد يستند إلى الإخوة والأصدقاء ، وقد يجد التسلية مع المعارف ، والسعادة على يد الأحباء ، ولكنه فى نهاية المطاف محكوم عليه بالانطواء على نفسه فهو يجد نفسه ، فى عزلة لا يعين عليها معين اللهم إلا ما أوتى من ملكات إبداعية . كذلك يذكر جوته أنه كثيراً ما فكر فى ملكاته الإبداعية التى فطر عليها ، وظنها هبة من الطبيعة ، وأنها خاصة به ، مقصورة عليه ، وأنها لم تأته من مصدر خارجه ، ولم تحتج فى نموها إلى شىء من خارجها . وخطرت ببال جوته صورة پروميثيوس فوجدها مناسبة لتجسيم هـذا الوضع : الفنان يبدع خاصة فى العزلة ، وهو إذا تعثر فى أثناء العملية الإبداعية لا يلجأ إلى الناس طالباً مساعدة ، بل يبتعد عن الناس قدر الطاقة ، ويلوذ بنفسه . هـكذا كان پروميثيوس فى ابتعاده عن الآلهة ، على نحو ما تحكى أساطير الإغريق .

وجوتة يصور فى مسرحيته التى لم تكتمل ، والتى تركها على هيئة مناظر متفرقة ، پروميثيوس الذى يرى أنه ند للآلهــة ، ويجد فى نفسه دافعاً إلى التفرد والحرية والإبداع ، فهو يعاند كبير الآلهة يوبتر (زيوس) ويرفض أن يتصــالح معه ، ويقبل عرض مينرفا التى تسوقه إلى نبع الحــياة حيث يستقى منه الحياة للكائنات البشرية التى صنعها . وإذا كان پروميثيوس قد خلق هؤلاء البشر على شاكلته ، فمعنى ذلك أن البشر سيسيرون ســيرته . وسيعاندون الآلهة ، وسيرون أنفسهم أنداداً لهم . وأياً كان الأمر فإن البشر يلزمون جانب پروميثيوس الذى يعلمهم الحضارة ، فهو يعلمهم كيف يبنون الكوخ ، ويرتبط برمز بناء الكوخ مفهوم الملكية الخاصة ، ويحسم جوتة المشكلة إذ يرى أن الذى بنى الكوخ أصبح مالكاً له . وهو يعلم البشر — عندما يتنازعون على الصيد — أن على من يفكر فى المساس بالآخرين أن يدرك أن الآخرين سيفكرون فى المساس به ، فكما تدين تدان . وهــكذا فإن پروميثيوس يعترف بوجود نظام أخلاقى عادل . وپروميثيوس يعلم البشر شيئاً ثالثاً هو العلاج ، وهو يعلمه إياهم فى إطار نظام الطبيعة التى جعلت لكل داء دواء .

ويرى الأستاذ ڤولفجنج كايزر فى تعليقاته على پروميثيوس أن جــوته يتخذ موقفاً من آراء روسو ، فهو فى الفصل الثانى يرسم صوراً رمزية للإنسانية فى بدايتها الأولى ، وهو يتخذ موقفاً من الملكية الخــاصة ، ومن الصراع والتناحر بين البشر ، ومن القانونية الأخلاقية ، ومن القانونية الطبيعية ، كذلك يرى أنه يتخذ موقفاً من الإنسان فى حياته الأولى بين أحضان الطبيعة فهو لا يذهب مذهب روسو فى أنه « حر سليم البدن طيب خير سعيد » بل يجد أنه يجمع فى قدره بين الضدين : النشاط والكسل .. الشراسة والحلم .. الكرم والبخل .

وتشير الدراسات الحديثة إلى أن جوته رسم فى مسرحيته المجتثة صورة متكاملة لپروميثيوس الذى يبــدأ متمرداً ، متفرداً ، ثم ينتهى إلى القبــول بالنظام القائم ، وإلى الحديث بلسان الحكيم الذى يعلم البشرية أن أعمق

ما تبلغه الإنسانية هو الحب ، وأن الانطلاق عن الحدود لا ينتهى بالمـوت بمعنى العـدم ، بل بالنشأة الجديدة ، حيث يعود الإنسان إلى الحياة وقد ازداد قوة وسعة وهمة وبشاشة .

وإذا كان جوته قد أشار إلى أن القصيدة التى تحمل عنوان پروميثيوس والتى تضمها أعماله الغنائية هى فى الأصل بداية الفصل الثالث من المسرحية ، فإن البحوث الحديثة ترى أن الأمر قد التبس عليه ، بعد مرور أربعين عاماً ، وبخاصة أن المخطوط لم يكن فى عام ١٨١٣ تحت يديه .

وهنالك تمثيلية لجوته بعنوان « پاندورا » كتبها فى عام ١٨٠٩ عالج فيها مادة پروميثيوس بمفهوم جـديد ، فساوى بين الأخوين پروميثيوس وإيپيميثيوس فى الإبداعية ، وجعل الأول ينزع إلى الفعالية والثانى إلى الخيال والأحلام .

اما النص الشعرى الذى ضمنه جوته أعماله الغنائية بعنوان « پروميثيوس » والذى يرده بعض العلماء إلى عام ١٧٧٣ والبعض الآخر إلى عام ١٧٧٥ فهو على النحو التالى :

غط سماءك يا زيوس
بغمام السحاب
وقم بعملك — مثل الصبى
الذى يطيح برؤوس الحسك —
فى أشجار البلوط وفوق أعالى الجـبال .
ولكن عليك
أن تترك لى أرضى
وكوخى
الذى لم تبنه ،

وفرنى
الذى تحسدنى
على نارة المستعرة .
إنا لا أعرف تحت الشمس
من هم أفقر من الآلهة .
إنكم ، معشر الآلهة .
مساكين تغذون جلالكم
من أموال القرابين
وبخور الصلوات .
وماكنتم إلا ستعانون الشظف
لو لم يكن الصبية والشحاذون
أغبياء غارقين فى الأمل .
عندماكنت طفلا غرا
عديم الحيلة
رفعت عينى الضالة
إلى الشمس ، كأن أذنا
هناك ، من فوقها ، تسمع شكواى ،
وقلباً مثل قلبى
يرق للمنكوبين .
من الذى أعاننى
على صلف التيتان ؟
من الذى نجانى من الموت

ومن العبودية ؟

ألم تفعل هـــذا كله وحـــدك

يا قلبي المقدس المتقد ؟

ألم ترفع متأججاً ، وقد غرروا بك .

عبارات الشكر . صبياً طيباً .

إلى النائم فوق الأوليمب ؟

أنا أجلك ؟ لماذا ؟

هل خففت يوماً

عن حامل الإصر آلامه ؟

هل جففت يوماً

دموع المكلومين ؟

ألم يسبكني سبك الرجال

الزمن الجبار

والقدر السرمدى

سادتى وسادتك ؟

هل تراك ظننت

أننى قد أكره الحياة

وأهرب فى الفيافى والقفار

لأن أحلام أزاهير صباح الصبا

لم تنضج ؟

إننى أقعد هـــنا . أشكل بشراً

على صورتى .

أمة مثلى
تعانى وتبكى
وتتمتع وتبتهج
ولا تبدى لك
مثلى الاحترام .

هل كان هذا النص فعلا مدخل الفصل الثالث من المسرحية التى لم تتم ؟ أم هل أخطأ جرته فى هـــذا الحديث ، وخانته الذاكرة ؟ هذا سؤال سيظل بلا جواب اللهم إلا الترجيح اعتماداً على الوحدة التى نستشفها من العمل فى تكامله . وأياً كان الأمر ، فإن مسرحية « پروميثيوس » تعبر عن اشتغال جوته بالتراث الإغريقى القديم . ومحاولته سبر أغوار النماذج القصصية الشعرية الأسطورية الأولى واستخدامها فى التعبير عن أفكار وأحاسيس الإنسان فى غير تقيد بالزمان والمكان . ولم تكن شخصية پروميثيوس الرمزية هى الشخصية الوحيدة التى اهتم بها ، فهناك شخصية موازية لهـــا هى شخصية الشيطان أو مفيستوفيليس التى أقام عليها مسرحية فاوست بأجزائها المختلفة .

يوهان فولفجنج فون جوته

بروميتيوس

قطعة مسرحية لم تكتمل

الفصل الأول

بروميتيوس • مركور

بروميثيوس : أقول لكم : أنا لا أريد .
باختصار ، لا أريد .
وهـذه هي إرادتكم ضد إرادتي .
واحدة ضد واحدة
والنتيجة في رأيي هي التعادل .

مركور : هل نرفع الأمر إلى أبيك زيوس ؟
أو إلى أمك ؟

بروميثيوس : ما حديثكم عن أبي وأمي :
هل تعلم من أين أتيت ؟
كنت واقفاً : عندما لاحظت لأول مرة
القدمين قائمتين .
وبسطت يدى
عندما أحسست باليدين مبسوطتين
ووجدتهما يقدران خطواتى
هذين اللذين تسميهما أباً وأما :

مركور : ويقـدمان إليك
العون الذى تطلبه الطفولة .

بروميثيوس : ولقد نالا لقاء ذلك

الطاعة منى فى طفولتى .

وقاما بتشكيل الناشىء المسكين

فى هـــذا الاتجاه ، وفى ذلك ، بحسب رياح أهوائهما

مركور : وحمياك .

پروميثيوس : مم ؟ من الأخطار

التى خشياها .

هل حموا القلب

من الثعابين التى كانت فى الخفاء تعـــذبه ؟

هل دعموا هـــذا القلب

ليكون صلبا فى معاندة كل (تيتان) ؟

ألم يكن الزمن الجـــبار ،

ربى وربكم ،

هو الذى سوانى رجلا ؟

مركور : أيها البائس . تقول هـــذا عن آلهتك ،

آلهتك اللانهائية ؟

بروميثيوس : الآلهة ؟ أنا لست إلهـــاً

ولكنى أتصور قدر ما يتصور الإله .

لا نهائية ؟ جبارة ؟

ماذا تستطيعون ؟

هل تستطيعون أن تضعوا فى قبضتى

المكان الفسيح

بين السماء والأرض ؟

هل تستطيعون
أن تفصموني عن ذاتي ؟
هل تستطيعون أن تمدوني
وتوسعوني لأصير عالماً ؟

مركور : والقــــدر .

بروميثيوس : هل تعترف بسلطانه ؟
وأنا كذلك .
فانصرف ، إنني لا أخدم التابعين .

(مركور يخرج)

بروميثيوس (يعود إلى تماثيله المنتشرة في كل أنحاء الغابة) :

لحظه لا تعوض .
لقد انتزعني أحمق
من ناديكم
يا أولادي .
ومهما كان ما يجيش في صدري —

(يقترب من فتاة)

فعلى الصدر أن ينعطف فوراً تجــاهي .
هــــذه هي العين تتكلم الآن
تكلمي ، تحدثي إلى ، أيتها الفتاة .
ليتني أستطيع أن أمنحكم الإحساس .
بمن تكونون .

(إپيميثيوس يأتى)

إپيميثيوس : مركور يشكو شكوى مريرة .

پروميثيوس : لو لم تكن لك إذن تسمع الشكوى

لعاد أدراجه دون أن يشكو .

پروميثيوس : يا أخى . إنما يصح الصحيح .

لقد كان اقتراح الآلهـة .

فى هـذه المرة مقبولا .

إنهم يريدون الجلاء عن قمة الأوليمب

لتسكن أنت عليها

وتحكم الأرض .

پروميثيوس : أكون والياً من قبلهم

وأحمى سماءهم ؟

عندى اقتراح أفضل بكثير :

إنهم يريدون أن يقسموا معى

وأنا أرى أن ليس هناك ما نقسمه .

ليس فى مقدورهم أن يسلبونى ما عندى .

أما ما عندهم فعليهم أن يحموه بأنفسهم .

هـذه أمور يحكمها مالى ومالك : ما يكون لى ، وما يكون لك ،

ونفترق بالحسنى .

إپيميثيوس : فما مقدار هـذا الذى لك ؟

پروميثيوس : الدائرة التى تملؤها فعاليتى .

لا أكثر ولا أقل .

وهــذه النجوم العالية
بأى حق
تحملق فى ؟

إبيميثيوس : أنت تقف وحدك .
عنادك ينكر النعيم
الذى يتاح لكم عندما تحس
أنت والآلهة
وأهلك والعالم والسماء
بأنكم جميعاً كل مؤتلف فى ذاته .

پرومثيوس : هــذا شىء معلوم لى .
أرجوك يا أخى الحبيب
افعل ما تستطيع ودعنى وشأنى .

(إبيميثيوس يخرج)

پروميثيوس : هــذا هو عالمى ، هــذا هو الكل الذى لى .
هنا أحس بنفسى ،
هنا كل آمالى
فى أشكال مجسدة .
روحى قد قسمتها ألف جزء
وهى كاملة فى أبنائى الأعزاء

(مينرفا تدخل)

پروميثيوس : هل تجرئين يا ربتى ؟
هل تجرئين على السير إلى عدو أبيك ؟

مينرفا : إننى أحـــترم أبى
وأحبك أنت يا پروميثيوس .

پروميثيوس : وأنت بالنسبة لروحى
ما هى بالنسبة لذاتها .
منذ البدء كانت
كلماتك عندى نور السماء .

كانت كلماتك دائماً عندى
كأن روحى كلمت نفسها
كأنها انفتحت
ورنت فيها من ذاتها
أنغام انسجامات مفطورة فيها .
فما كنت أنا أنا

وإذا ظننت أننى أتكلم
كانت ربة تتكلم
وإذا ظننت أن ربة تتـــكلم
كنت أنا الذى أتكلم .
هـــكذا أمرى وأمرك

هكذا نحن متحدان ، وحبى
الخالص أبداً لك .

مينرفا : وأنا معك إلى الأبد .

پروميثيوس : مثل ضوء الغسق الحلو
والشمس غاربة

عندما يطفو هناك
من قلب القوقاز المظلم
ويحيط روحي بسكينة النعيم
غائباً عني حاضراً أمامي على الدوام
كذلك نمت قواى
وشبت من هواء سمائك مع كل نفس .
وأى حق على قواى
يتطاول سكان الأولمب المتكبرون
لينسبوه لأنفسهم ؟
إن قواى لى ، ولى وحـــدى استخدامها .
لن أخطو خطرة واحدة بعد الآن
من أجل أكبر الآلهـــة .
من أجلهم هم ؟ هل أنا من أجلهم ؟

مينرفا : هـــذا وهم القوة .

پروميثيوس : إننى أيتها الربة أتوهم أيضاً
ولكننى أيضاً قوى .
وإلا . — ألم تريني مراراً
فى عبودية من اختيارى
أحمل الإصر
الذى وضعوه على كاهلى فى جد مهيب ؟
ألم أنجز العمل ،
عمل كل يوم بأمرهم

لأنني كنت أؤمن
بأنهم يرون الماضي والمستقبل
في الحاضر ،
وأن هدايتهم وأمرهم
حكمة أزلية
خلت من الأثرة ؟

ميترفا : لقد خدمت حتى تكون جديراً بالحرية

پروميثيوس : ولست أريد أن أتبادل مهما كان الثمن
مع طائر الرعد ، النسر ،
أو أن أربط فخررا برزق سيدي
في مخالب العبيد .
من يكونون ؟ ومن أكون ؟

ميترفا : لست على حق في هـذا الكره
من حظ الآلهة أنها أوتيت الالتزام
والقسوة والحكمة والحب .

پروميثيوس : لديها هـذا كله
ولكنها ليست الوحيدة فيما لديها
فأنا أدوم مثلها .
ونحن جميعاً خالدون .
وأنا لا أذكر بدايتي
ولست مدعواً للنهاية
ولست أرى النهاية .

ولهـــذا فأنا خالد لأنني كائن — .

— أما الحكمة —

(يدور بها على التماثيل)

انظرى إلى هـــذه الجبهة

ألم يشكلها

أصبعى ؟

وقوة الصدر هـــذه

تندفع فى وجه

الأخطاء المحدقة هنا وهناك .

(يقف عند تمثال مؤنث)

وأنت يا پاندورا .

الإناء المقدس للنعم كل النعم

الممتعة

تحت صفحة السماء الواسعة

على وجه الأرض اللانهائية ،

كل إحساس بالنعم سعدت به

كل ما صب لى شراباً

ارتويت به فى ظل ظليل

حب الشمس نعيم الربيع الأبدى

موجة البحر الفاترة

التى تأتلف إلى صدرى فى رقة أبدية

وكل ما ذقته أبداً من سناء سماوى رائق

ومتعة السكينة الروحية

كل هـــذا — كله — يا باندورتى

ميترفا : لقـــد عرض عليك يوبتر

أن يهبها كلها الحياة

إذا أنت أطعته

واستجبت لطلبه .

پروميثيوس : هـــذا هو الشيء الوحيد الذى أهمنى .

هل يطلب منى أن أكون عبداً وحدى

وأن نعترف جميعاً بقوة الرعد على الأعالى ؟

لا . لتبق هـــنا مغلولة

إلى جمادها

وإنها لحرة

وإننى لأحس بحريتها .

ميترفا : إنما ينبغى لهـــا أن تعيش .

لقد أوتى القـــدر ، لا الآلهة ،

أن يمنح الحياة وأن يأخذها .

تعال ، سأقودك إلى نبع الحياة كلها

النبع الذى لا يمنعنا يوبتر عنه :

ينبغى أن تدب فيهم الحياة ، وعن طريقك .

پروميثيوس : عن طريقك أنت ، يا ربتى ،

الحياة ، والإحساس بالحرية .

الحياة — وستكون فرحتهم تعبيراً عن الامتنان لك .

الفصل الثاني

على الأوليمب

يوبتر • مركور

مركور : شيء فظيع . يا أبي يوبتر . خيانة عظمى .
مينرفا ، ابنتك
تساند المتمرد
لقد فتحت له نبع الحياة
وجعلت الحياة تدب
في ساحته التي يعمرها الطين
وعالم الطين من حوله .
إنها جميعاً تتحرك مثلنا
وتغزل وتهلل حوله
كما نفعل نحن من حولك .
آه لرعودك يا زيوس .

يوبتر : إنها كائنة . وستدوم .
وينبغي لها أن تكون .
على كل شيء موجود
تحت صفحة السماء الواسعة
وفوق وجه الأرض اللانهائية
الحكم لي .
وجنس الديدان

يزيد عدد عبيدى .

طوبى لهم إذا اتبعوا هـــدايتى الأبوية

وويل لهم

إذا تصدوا للدواعى الأمارة .

مركور : أيها الأب العظيم . أيها الرحيم .

يا من تغفر للمجرمين جرمهم ،

الحب والحمد لك

من الأرض كلها والسموات .

أرسلنى . لكى أنبئ

الأمة المسكينة . سليلة الطين .

عنك . أيها الأب . وعن رحمتك وقوتك .

نوبتر : ليس الآن . إن روحهم تظن

فى نعيم الصبا الوليد أنها شبيهة بالآلهـــة .

لن يسمعوك

حتى يحتاجوا إليك . دعهم لحياتهم .

مركور : حكيم أنت مثلما أنت رحيم .

واد أسفل الأوليمب

بروميثيوس : انظر من أعاليك يا زيوس

إلى عالمى : إنه حى .

لقد صنعته على صورتى .

جنسا على شاكلتى

يعانى ويبكى ويتمتع ويفرح

ولا يحفل بك

مثلي .

(يرى النظارة الجنس البشرى منتشراً فى الوادى كله افراده يتسلقون الأشجار ليقطفوا الثمار ، ويستحمون فى الماء ، ويتبارون فى العدو فوق المروج · وبعض البنات يقطفن الزهور ويضفون أكاليل صغيرة لطيفة ·)

رجل : انظر هـذه هى الأشجار

كما اشتهيتها .

پروميثيوس : كيف أخرجتها

أنت من الأرض ؟

رجل : بهذه الحجرة الحادة

اجتثثتها من جذورها .

پروميثيوس : اقطع الفروع أولا .

ثم دق هـذا مائلا

عميقاً هنا فى الأرض

ودق هـذا هنا ، قباله ،

واربطهما من أعلا

ثم دق اثنين آخرين هنا إلى الخلف

ومد من فوقها واحداً

ثم اجعل الفروع من أعلا إلى أسفل

حتى تصل إلى الأرض

واربطها وضمها

وازرع النجيل من حولها
وابسط الفروع من فوقها ، ابسط المزيد
حتى لا ينفذ نور الشمس منها
والمطر والريح .
هـــذا يا بنى العزيز ، ملجأ لك وكوخ .

رجل : شكراً يا أبى العزيز ، شكراً جزيلا .
قل لى ، هل يحق لإخوتى جميعاً
أن يسكنوا فى كوخى ؟

بروميثيوس : لا .
لقد بنيته لنفسك ، وهو ملك لك .
يمكنك أن تقتسمه
مع من تشاء .
وعلى من يريد السكنى أن يبنى
لنفسه بنفسه كوخا

(بروميثيوس يخرج)

(رجلان)

الأول : لا ينبغى لك أن تأخذ واحدة
من عنزاتى
فهى لى ، هى ملكى .

الثانى : من أين لك بها ؟

الأول : لقد ظللت بالأمس ليلا ونهاراً
أتسلق الجبال هنا وهناك
حتى تفصد العرق حاراً من جبينى .
وأمسكتها حية

وبقيت طوال الليل أحرسها
وأحطتها بسياج
من الحجر وفروع الشجر .

الثاني : اعطني واحدة .
لقد اقتنصت بالأمس عنزة أيضاً
وطهوتها على النار
وأكلتها مع إخوتى .
أنحتاج اليوم أكثر من واحدة ؟
غداً نعود إلى القنص .

الأول : لا تقترب من خرافى .

الثانى : بلى .
(يحاول الأول أن يرده ، فيلكزه الثانى لكزة ، فيهوى على الأرض ، ويأخذ الثانى عنزة وينصرف)

الأول : إنه العنف ! يا للويل ! يا للويل !

پروميثيوس (يأتى) : ماذا حدث ؟

الرجل : إنه يسلبنى عنزاتى . —
والدم يسيل من رأسى .
لقد نسفنى .
بهذا الحجر .

پروميثيوس : خذ من هذه الشجرة هذه القطعة الأسفنجية
وضعها على الجرح .

الرجل : هــكذا . يا أبى العزيز .

لقد وقف النزيف .

پروميثيوس : اذهب واغسل وجهك .

الرجل : وعنزتى ؟

پروميثيوس : دع الرجل الذى أخذها .

إذا كانت يده ضد كل إنسان

فستكون يد كل إنسان ضده .

(الرجل يخرج)

پروميثيوس : إنكم لم تنحرفوا عن خلقتكم يا أبنائى ،

كونوا أهل جد وكسل

أهل عنف وحلم

أهل كرم وبخل

كونوا على شاكلة إخوانكم فى المصير جميعاً

كونوا على شاكلة البهائم والآلهة .

(پاندورا تأتى)

پروميثيوس : ماذا بك يا ابنتى ،

لما هـذا الانفعال ؟

پاندورا : أبتاه .

آه ، يا أبى ، ياهـول ما رأيت

وما شعرت .

پروميثيوس : ماذا حـدث ؟

پاندورا : آه ، حبيبتى المسكينة ميرا —

پروميثيوس : ماذا جرى لهـا ؟

بانلوريا : أحاسيس لا اسم لهـــا .
رأيتها تذهب إلى خميلة الغابة
حيث اعتدنا أن نقطف زهور الأكاليل
فسرت من ورائها
آه ، فلما تجاوزت التل
رأيتها تهوى على قطعة من الكلأ في الوادى .
ومن حسن الحظ أن أربار كان فى الغابة مصادفة .
وأمسكها بقـــوة بين ذراعيه
ولم يدعها تهوى إلى الأرض وحدها .
آه ، بل هوى معها .
ومال رأسها الجميل
فقبلها ألف قبلة
وتعلق بفمها
لينفخ فيها روحه ،
فتملكنى الخوف ، وقفزت إليهما وصرخت
فردتها صرختى إلى وعيها ،
وتركها أربار ، فهبت واقفه .
آه ، واحتضنتنى
بعينين كأنهما مكسورتان
كان صدرها ينتفض انتفاضاً
ويوشك أن يتمزق
وكانت وجنتاها متأججتين نار

وكانت تلعق فمها بلسانها
ومن عينيها انهمرت دموع ودموع
رعدت فأحسست بركبتيها ترتجفان
فأمسكتها ، يا أبي العزيز ،
فبثت قبلاتها ونارها
إحساساً جديداً مجهولا
فى عروق ،
فاضطربت ، وهاجت مشاعرى
وتركتها فى النهاية باكية
وتركت الغابة والحقول
وجئت إليك يا أبى . قل لى
ما هـذا كله الذى هزها
وهزنى ؟

پروميثيوس : إنه الموت .

پاندورا : وما الموت ؟

پروميثيوس : لقد ذقت الكثير
من المتع .

پاندورا : ألف مرة . وإنى لممتنة لك على كل شىء .

پروميثيوس : لقد تحرك صدرك
نحو الشمس القادمة
والقمر المتحور
وتمتعت فى قبلات رفائب -

بالنعيم أصفى النعيم .

پاندورا : لا سبيل إلى التعبير عنه .

پروميثيوس : فما الذى رفع جسدك
في الرقص عن الأرض خفيفاً ؟

پاندورا : الفــرحة . —
كما أن كل عضو من أعضائى تحرك بالغناء واللعب
سبحت فى اللحن وذبت فيه ذوباً .

پروميثيوس : وكل شيء يذوب فى النهاية فى النوم .
الفرحة والألم على حد سواء .
لقد أحسست بقيظ الشمس
وبلهفة العطش
وبتعب ركبتيك
وبكيت على شاتك المفقودة
وتأوهت وارتعدت
عندما دست فى الغابة على شوكة
حتى شفتيك منها .

پاندورا : كثيرة هى يا أبى مباهج الحياة
وآلامها .

پروميثيوس : وأنت تحسين فى قلبك
أن المباهج ما تزال كثيرة
وأن هناك من الآلام مالا تعرفين .

پاندورا : حقاً . حقاً . إن هـــذا القلب كثيراً ما يتوق

إلى الاندفاع إلى كل مكان ، أو لا مكان .

پروميثيوس : تلك لحظة تحقق كل شئ

كل شيء نتوق إليـــه ، ونحلم به ، ونتمناه ،

ونخشاه ، يا أعز الأعزاء — إنه الموت .

پاندورا : الموت ؟

پروميثيوس : عندما تحسين بكل شيء

من أعمق الأعماق ، وقد اهتز كيانك كل الاهتزاز .

وينهمر عليك كل ما أوتيت أبدا من فرح وألم

ويفيض قلبك وسط العاصفة .

ويسعى إلى التخفيف عن نفسه فى الدموع ويزيد ناره

ويحدث كل شيء بك رنيناً ويهتز ويرتعد

وتتبدد حواسك كلها

وتظنين أنك تتلاشين

وتهوين . ويهوى كل شيء حولك .

فى ليل بهيم ، وتحيطين أنت

بالعالم كله فى إحساس عميق بعالم :

هنالك يموت الإنسان .

پاندورا (تعانقه) : آه يا أبى دعنا نموت

پروميثيوس : ليس الآن .

پاندورا : وماذا بعد الموت ؟

بروميتيوس : عندما يذوب كل شيء – الرغبة والبهجة والألم –

في لذة عاصفة

ثم ينتعش كل شيء في نوم النعيم –

تهبين إلى الحياة ، يانعة الصبا ،

وتخافين وتأملين وتشتهين من جديد .

طبع بمطابع الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة

(رمزى السيد شعبان)

رقم الايداع ٣٤٧٠

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية (بولاق) ٨٧٨ - ٤ س ٨٧ - ١٠١٠

مطبوعات

المجلس الأعلى للثقافة

